جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا
كليـــــة الدراســـــات العليـــــــا

البحث التكميلي لنيل درجة الماجستير في الترجمة

ترجمة الصفحات (1-50) من كتاب:

ثلاث معارك سودانية

لمؤلفه بيتر كلارك

A Translation of the pages (1-50) of the Book Entitled

"Three Sudanese Battles"

By: P Clark

ترجمة الباحث:
أسامة أحمد نور الدائم

إشراف:
الدكتور تاج السر بعشوم حسن

2015م

أُمَّة لا تَعْرِف تَارِيخَهَا،
لا تُحْسِن صِيَاغَة مُسْتَقبلهَا

الاهـــداء

إلى والديَّ، طيب الله ثراهم

شكر وعرفان

بادي ذي بدء أحمد الله العلي الكبير حمداً يوافي نعمة وأصلى على خاتم رسله ومجتباه من خلقه محمد صلى الله عليه وسلم.

أخص بالشكر والثناء والتقدير الدكتور/ تاج السر بعشوم حسن على تفضيله بالإشراف على هذا البحث. كما أقدم أجزل شكر إلى كافة طاقم التدريس بقسم اللغات، كلية الدراسات العليا، جامعة السودان، لما قدموه من عون وتجشموه من عناء في سبيل توصيل المعلومة وتيسيرها. ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر للأساتذة الممتحنين لما يلاقونه من كبير عناء وما يقطعونه من زمنهم الغالي لقراءة البحث ومناقشته. والشكر موصول لجميع الأخوة الذين لم يدَّخِروا جهداً في المساندة والدعم المعنوي حتى رأى هذا البحث النور.

الباحث

المستخلص

يستعرض الكتاب في الصفحات 1–50 (الفصلين الأول والثاني) أثنين من أهم الأحداث التاريخية في السودان خلال الفترة 1880 – 1890م، والتي رسمت خطاه فيما بعد.

يلقي الفصل الأول الضوء على حملة هكس باشا 1883م، ويقدم تحليلاً دقيقاً عن أسباب فشلها والآثار المباشرة المترتبة عليها. يركز الكتاب في الفصل الثاني على الفريق أول غوردون ونهايته بسقوط الخرطوم 1884 – 1885م، ويحدد الأسباب الرئيسية التي مهّدت لسقوطها وسيادة الدولة المهدية.

يستعرض الكتاب في هذين الفصلين بصورة عامة، الخلفيات الجغرافية، والأحوال المعيشية، والناس، ولكن الأهم من ذلك الشخصيات الرئيسية المتورطة في الصراع. كما يتناول بالتحليل القرارات الاستراتيجية والتكتيكية التي أتخذها قادة الجيشين في المعارك المختلفة، ويحدد أنه كانت هناك أوقات عندما لم يتخلى القادة عن معتقداتهم، وصفاتهم الشخصية، ودوافعهم، وإيمانهم الديني، ولكن على حساب النتيجة.

Abstract

The first and second chapters of this Book review two of the most important historical events in the Sudan during the period 1880 -1890. The consequences of which mapped the future and the development of Sudan in later years.

The first chapter sheds light on the Hicks Pasha campaign of 1883; it provides an in-depth analysis identifying the basis of the failure and the direct outcomes. In the second chapter, the book focuses on General Gordon culminating in the fall of Khartoum 1884 – 1885. It identifies what were the main causes of the fall of Khartoum and the creation of the Mahdia State.

The two chapters consider, in general, the geographical backgrounds, living conditions, people, but importantly, the major characters involved in the conflict. The chapters examine the strategic and tactical decisions made by the commanders of both armies throughout the different battles. It identifies that there were times when, to the detriment of the outcome, commanders never lost sight of their beliefs, personal qualities, motives and religious faith.

مقدمة الباحث

الهدف الرئيسي للترجمة هو التواصل ونقل المعارف والتجارب العلمية إلى مختلف الشعوب، لذلك يساهم هذا البحث في خدمة هذا الهدف لإثراء المكتبة السودانية والعربية. يعالج الكتاب موضوع تاريخي مهم، تناول فترة حساسة من التاريخ السوداني لا تزال تلقي بظلالها على السياسة السودانية والتاريخ العالمي، مما حدى بالمترجم لاختياره كموضوع بحث لنيل درجة الماجستير في الترجمة.

واجهت الباحث العديد من المعوقات في ترجمة هذا الكتاب منها، حساسية المادة التاريخية، حيث أن التاريخ لا يحتمل الخطأ، لذلك كان التدقيق ومراجعة الحقائق التاريخية ومقارنتها أمراً صعباً ومشوقاً في نفس الوقت. ورغم أن المؤلف وقع في كثير من الأخطاء التاريخية، إلا أن المترجم التزم الحيادية وترجمة المعاني كما وردت في الأصل، رغم أن فكرة إدراج تعليقات في الهامش كان مغرية، إلا أن المترجم تغاضى عن ذلك لضيق الوقت.

أيضاً صعوبة المصطلح التاريخي واسماء بعض الأماكن المحلية وكتابتها باللغة الإنجليزية، كانت من المعوقات التي توقف عندها الباحث كثيراً، وقد عالج ذلك بالاستعانة ببعض كتب التاريخ الصادرة في هذا الإطار والتي أوردها أدناه. كما أستعان أيضاً ببعض أبناء المنطقة من جنوب كردفان لتأكيد اسماء بعض الأماكن، مثل (فرتنقول) و(جعيبات).

كما كان لسوء طباعة الكتاب (صدر في 1977م ولم تصدر منه طبعات جديدة) وبعض التشويه في كلماته أثره في إبطاء عملية الترجمة. أيضاً عدم صحة ترتيب بعض الصفحات والتي تنبهت إليها بعد عدم استساغة السياق العام ومراجعة النص مرة بعد أخرى.

كما أن اعتماد المؤلف على الجمل القصيرة جداً، جعل من صياغتها باللغة العربية أمراً شديد الصعوبة، لعدم تآلفها مع التركيب العربي، ولكن بالصبر والعزيمة حاول المترجم الوصول للترجمة المثلي.

اتبع الباحث في ترجمة هذا الكتاب أسلوب الترجمة بالمعنى بالاستعانة بأمهات القواميس، كما كان لكتب التاريخ نصيب الأسد في فهم الأحداث العامة وصحة السرد، منها: كتاب كرري، عصمت حسف زلفو (1995)، وكتاب السودان عبر القرون، مكي شبيكة (1991)، وكتاب تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري، أحمد محمد سيد أحمد (2000)، وكتاب تاريخ الخرطوم، محمد إبراهيم أبو سليم (2008)، بالإضافة لبعض المقالات التاريخية ذات الصلة بالشبكة العنكبوتية.

رغم أهمية موضوع هذا الكتاب، إلا أنه لم تتم ترجمته من قبل رغم صدوره قبل 38 سنة، وهو مساهمة حقيقية في المجال التاريخي السوداني والعالمي، وإضافة حقيقية للمكتبة العربية والقارئ العربي. وبحمد الله وتوفيقه سيجد الكتاب طريقه قريباً إلى المكتبة السودانية بعد اكتمال الفصل الثالث خدمةً لطلاب التاريخ والمهتمين به، وتأكيداً لرسالة الترجمة والتعريب.

الباحث

المحتويات

شكر وعرفان ..... ج

المستخلص..... د

Abstract..... هـ

مقدمة المترجم..... و

المحتويات..... ح

مقدمة..... 2

الفصل الأول..... 5

الفصل الثاني..... 24

معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية
جامعة الخرطوم

ثلاث معارك سودانية

بيتر كلارك

الخرطوم 1977

مقدمة المؤلف

قام ضابط شاب بالجيش السوداني في العام 1973، الرائد عصمت حسن زلفو، بنشر كتاب كبير عن معركة أم درمان وأسماه "كرري"، حيث أن المعركة معروفة ومشهورة بهذا الاسم في السودان.

ناقش زلفو في كتابه الخلفية السياسية والاجتماعية والعسكرية للمعركة، وشرح التنظيم الحربي (التكتيك) الخليفة عبد الله بصورة متعاطفة، ولكنها ناقدة. قمت بترجمة هذا الكتاب في الفترة 1973 – 1975م من اللغة العربية للإنجليزية. أثناء ذلك كان لي مناقشات متكررة وطويلة مع زلفو، كما قمت بزيارة موقع المعركة معه. يعتمد معظم ما جاء في هذا الكتاب بصورة كبيرة على عمل وطريقة تناول الأستاذ عصمت حسن زلفو.

طلب مني المبجل شارلز بونسال في العام 1974م تقديم محاضرة عن المعركة بنادي غداء رجال الدين بالخرطوم. لا يوجد بهذا النادي أي قوانين، عضوية أو تسجيل، ويتكون الحضور من خليط متوافق من الجنسيات والأديان والمهن والخلفيات. الفصل الثالث من هذا الكتاب عبارة عن تنقيح للمحاضرة التي ألقيتها في 12 يناير 1975م.

قمت بإلقاء محاضرة أخرى في العام التالي في نفس المكان عن الفريق أول غوردون في 25 يناير 1976 بمناسبة الذكرى الواحدة والتسعين لسقوط الخرطوم لتحتل مكانها تحت الفصل الثاني من هذا الكتاب بعد تنقيحها.

قمت بالرجوع للتاريخ مرة أخرى حينما طُلب مني في أوائل هذا العام تقديم محاضرة ثالثة، فأعددت واحدة عن حملة هكس باشا وقمت بتقديمها في نادي الغداء في 13 فبراير 1977، وكانت هي أساس الفصل الأول.

لمن لا يستطيعون قراءة العربية فإنه تمت كتابة المقالات الثلاث من وجهة نظر أنجلو – مصرية. لم يتوفر لدي سوى القليل من الكتابات التي تناولت الأحداث الثلاثة في السياق السوداني. كان هدفي في المحاضرات الثلاث هو تأكيد الخلفية المحلية والمشاكل العملية التي واجهت المقاتلين. لا تدعي المحاضرات أو هذا الكتاب أي حق في البحث الأصلي.

قمت بمراجعة المصادرة المنشورة باللغة العربية وأيضاً الإنجليزية. كما قمت بزيارة مواقع المعارك وناقشت هذه الحملات مع العديد من الأصدقاء السودانيين وغير السودانيين. ناقشت معركة أم درمان في ديسمبر 1976 مع أحد المشاركين فيها، الشيخ الدرديري عبد الخالق من بارا، بشمال كردفان. وقد كان أيضاً شاهداً على حصار الخرطوم وهو طفل عمر 6 سنوات، حينما كان في ثكنات النساء خلف معسكر عبد الرحمن ود النجومي. قمت أيضاً بمراجعة بعض التقارير التي تتعلق بحملة كردفان بدار الوثائق المركزية بالخرطوم.

أنا على دراية بمحدودية المحاضرات الثلاث، حيث لا تعتبر تاريخاً عسكرياً للمهدية. قمت فقط بالإشارة بصورة وجيزة لحملات عثمان دقنة العظيمة في شرق السودان، وحملات الحدود المصرية، والحرب مع أثيوبيا، والصراع الداخلي في دولة المهدية. وقد قمت بكتابة القليل، متعمداً، عن قصة الفريق أول غوردون، ومسار حملة الإنقاذ، والحملة في الجزيرة، ومعارك الحلفاية والعليفون.

على النقيض من ذلك، حاولت أن أؤكد على فردية المشاركين. فقد كانت دائماً تلك الفترة تعتبر فترة تقدم لا مفر منها للإمبريالية الأوربية. لم يرى معاصري تسعينات وثمانينات القرن الثامن عشر أن الاحتلال الأنجلو – مصري الأخير للسودان حدث واقع لا محالة، فقد كانت هناك العديد من المطبات خلال هذه العملية. أعطت الجهات الفاعلة في هذه الدراما اهتمامًا أكثر بالجوانب العملية والتفصيلية والفورية لكل ما يتعلق بالتموين والتمويل والروح المعنوية وصيانة وإصلاح الأسلحة المعطوبة. واجه كل من هكس والمهدي وغوردون والخليفة وكتشنر مشاكل لم يجدوا لها حلول بديلة.

نُشر الفصل الثاني في نوفمبر 1976م في مجلة سافيج أند سولجر Savage and Solider وهو عنوان ساخر لمجلة أمريكية صغيرة متخصصة في التاريخ العسكري الاستعماري. وسوف يُنشر الفصل

الثالث في يوليو 1977 في مجلة الجيش التي تصدر كل 3 اشهر. سوف يتم نشر كتاب عصمت حسن زلفو بواسطة ليو كوبر في 1978.

أنا شاكر للعديد من الأفراد لمساعدتهم لي بصور مختلفة، خاصة شارلز بونسال لإتاحته الفرصة لإعداد وتقديم محاضراتي في البدء؛ للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم لمنحي الأذن باستخدام دار الوثائق المركزية بالخرطوم؛ للبروفسير يوسف فضل حسن لتنظيم المطبوعات؛ لإيزابيل كلارك لطباعتها للعديد من نسخ المحاضرات؛ لجون قاولت لرسمه للخرائط. وأخيراً امتناني الشديد للأستاذ عصمت حسن زلفو الذي أثار اهتمامي بالموضوع في البدء، لهذا أهدي هذا الكتاب له.

بيتر كلارك

الخرطوم

مارس 1977

حاشية:

خلال حديثي عن الفريق أول غوردون كنت متوتراً بعض الشيء. عندما تحدثت عن شخصية غوردون في الفقرة الأولى، وقلت عنه: خيالي، ورع، لا يخاف بتاتاً، ولا يؤثر نفسه إطلاقاً – فقد قرأت الكلمة الأخيرة "يؤثر نفسه". لم أتنبه للخطأ في لحظته حتى لفت انتباهي إليه أحد الحضور. قال لي أحد الحضور بأنه كان يظن بأن الليلة ستكون مخصصة لتقريع غوردون. بينما أشاد آخر بإشارتي للمفارقة. لكن النسخة المنقحة تحمل تعبير "لا يؤثر نفسه إطلاقاً".

الفصل الأول

حملة هكس باشا

1883م

شهد شهر ديسمبر من العام 1883م موجة من الذعر في أوساط المجتمع الأجنبي في الخرطوم، فقد انتشرت وعلى مدار العامين الماضيين حركة مناهضة للوجود الأجنبي في البلاد، بغرب السودان بقيادة المهدي، وأخذت تنتشر كالنار في الهشيم. كان مصير الحملات العسكرية المتعاقبة التي أُرسلت لإخمادها كارثياً، فقد سقطت المدينة الثانية في البلاد، الأُبيّض بكردفان، فتم إعداد وتجهيز حملة عسكرية كبيرة خلال العام 1883م، بقيادة الفريق أول وليام هكس، البريطاني الجنسية، والتي كانت تعدادها 7000 جندي، علقت عليها الجاليات الأجنبية آمالها للتخفيف من هذا التهديد.

وصلت شائعة إلى الخرطوم في يوم 13 نوفمبر بأنه من المفترض أن يكون هكس قد هزم المهدي في سبع معارك، وهو يحتل مدينة الأُبيّض. ولكن في وقت لاحق، بعد أحد عشر يومًا، جاء الخبر بأنه تم إبادة مُجمل القوة، وقد أفادت التقارير بأن جيش المهدي لديه 300,000 مقاتل، بحوزتهم بنادق ومدفعية. في هذه الأثناء كتب مراسل "التايمز" في الخرطوم بصورة يائسة، "ليس لدينا سوى 2000 جندي، ولا يوجد ملجأ أو ملاذ، والمدينة وكافة القطر حتى البحر الأحمر أصابته حمى الثورة والتمرد".

عجَّلت هذه الأخبار بعملية الرحيل والهروب من العاصمة. فقد قام القنصل الفرنسي، م. ماركيه، بتعبئة أشياءه الثمينة، والتي شملت المرايا، وقطع الزجاج، والفضة، والشمبانيا، والنبيذ، والبازلاء الخضراء، والهليون، والفراولة، والأناناس، وغادر المدينة. هرع آخرين من الأجانب إلى مدينة بربر قبل قطع طريق النهر إليها، ومن ثم شرقًا إلى سواكن – وهو الطريق المعتاد من وإلى الخرطوم في تلك الأيام.

سببت هذه الأخبار ذعر في القاهرة، عاصمة الخديوي، وامتعاض في لندن. كان البريطانيون قد احتلوا مصر مؤخرًا، وكان يسيطر على مقاليد الحكم في البلاد سلسلة من المستشارين البريطانيين بصورة غير مباشرة. أدت أخبار هذه الكارثة في لندن والقاهرة إلى إرسال الفريق أول غوردون إلى الخرطوم بأهداف لم يتم تحديدها بدقة، وبالتأكيد لا يمكن التوفيق بينها في الواقع. وصل غوردون إلى الخرطوم في فبراير 1884م، وما تلى ذلك من حصار وسقوط الخرطوم معروف للجميع. كانت ذكرى وفاة غوردون قوة دفع هامة في إعادة فتح السودان 1896–1898م، وفي الحكم الاستعماري البريطاني لهذا البلد والذي أدى إلى تشكيل الكثير من الأشياء التي هي مألوفة للزائر البريطاني للسودان اليوم.

في الدقائق القليلة القادمة سوف أقوم بالنظر في ماهية الأخطاء الذي أدت إلى أبادة حملة هكس، في شيكان بكردفان في 5 نوفمبر 1883م، والتي أدت إلى مثل هذه الأحداث الجسام. كما أود أيضًا إلقاء نظرة على خلفية كردفان المحلية وأثرها على الحملة، والأفراد الذين قاتلوا مع وضد هكس.

كانت كردفان في أوائل عام 1880م مقاطعة غنية نسبيًا. يُقدَّر عدد سكان الأُبيِّض، عاصمة كردفان، بحوالي 50,000 نسمة، وكان يوجد بها مستشفى، ومدرسة ابتدائية، وكنيسة، وإرسالية كمبوني. تقع البلدة الثانية في كردفان، بارا، إلى الشمال من الأُبيِّض، بعد حوالي ثلاثين ميلا، حيث امتدت منها طرق التجارة إلى الشمال نحو نهر النيل في الدبَّة، وإلى الشمال الشرقي إلى الخرطوم. كانت هناك حاميات أخرى صغيرة الحجم في الدلنج بجبال النوبة، وطيارة: 40 ميلا إلى الشرق من مدينة الأُبيِّض، والبركة وأبو حراز: 30 أو 40 ميلاً جنوب غرب الأُبيِّض، وخورسي: 5 أميال شرق بارا، وأسحف: 10 أميال جنوب غرب بارا. تألفت هذه الحاميات من جنود نظاميين، عادة من المسلحين جيدًا، وكان يتم تشكيلهم عموماً من المصريين، أو من جنوب السودان أو النوبيين، أما الضباط فقد كانوا من المصريين، كما كان بها قوات غير نظامية (باشبزق) وهم في كثير من الأحيان من قبيلة الشايقية.

كانت السُلطة الملكية المصرية خارج هذه المدن ضعيفة، وارتبطت بسمعة تجنيد قاسية للشبان لأداء الخدمة العسكرية، مع فرض تعسفي، ومتقلب، ومفرط للضرائب، مع تدخل غير مقبول في التجارة – وخاصة تجارة الرقيق.
سادت السلطة القبلية خارج هذه المدن، وكانت العقيدة الإسلامية قوية، ولم تتأثر كثيراً بالنفوذ المصري. في الشمال كان الكبابيش يسيطرون على طرق التجارة إلى مصر وحافظوا على تحالف مع الحكومة، ولكن من على البعد. أما في الجنوب فلم يكن لدى قبيلة البقارة، التي تعيش على تربية الابقار، مصلحة كبيرة تحاول الحفاظ عليها في علاقتها مع الحكومة، وقد وفَّرت أقوى دعم للمهدي في سنواته الأولى.

برزت جبال النوبة في جنوب كردفان، وكانت تقوم بإيواء 30 أو نحو ذلك من القبائل التي تجنبت الدخول في الإسلام والعروبة. كانت جبال النوبة تعتبراً مصدراً للرقيق، وملجأً للفارين من الضرائب والعدالة. يحيط بمدينة الأبيض وبارا، في وسط كردفان، العديد من القبائل المختلفة، بما في ذلك المهاجرين من الغرب والشمال. كما كانت هناك عديد من النيجيريين يتمركزون حول خورسي وطيارة

ممن استقروا هناك لقرن من الزمان أو أكثر. وقامت قبائل وادي النيل، أشهرهم الجوابرة، بنقل أساليب الري والزراعة المستخدمة على ضفاف الأنهار وادخلتها في الواحات بالقرب بارا. كانت كردفان وما زالت أكثر مناطق العالم إنتاجاً للصمغ العربي، وتصدِّر أيضاً بصورة رئيسية الرقيق، الذين كان يتم جمعهم بواسطة البقارة وبيعهم للتجار الجعليين والدناقلة.

أدت سيطرة الحكومة المحدودة، وتعظيم فكرة المحارب، وتمجيد القتال، إلى صراع متكرر بين القبائل، والعائلات، والأفراد. تحسنت سيطرة الحكومة في الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر، بفضل ظهور التلغراف وما ترتب عليه من سرعة في تحريك الجنود إلى أماكن النزاعات. ولكن بالنسبة لسكان كردفان، ورجال القبائل، والمحاربين، وتجار الرقيق، ورجال الدين، فإن عملية التذكير الإضافية بالوجود المصري كانت مزعجة وتبعث على الضيق. كانت المنطقة جاهزة للثورة، وكان الدعم لأي شخصية لها جاذبية (كارزما) ومناصرة لحكم الدين (ثيوقراطي) وتتحدى الحكم المصري، يعتبر أمراً طبيعياً في ظل هذه الظروف. قال يوسف ميخائيل، كاتب قبطي شاب في الأُبيِّض، "كان المهدي في كردفان، إذا جاز التعبير، يسقي تربة ظَمْأَى."

كان مركز التحدي للحكم المصري هو مُعلِّم ديني دنقلاوي يدعى محمد أحمد، والذي أعلن نفسه المهدي المنتظر، أي المتوقع الذي يهدي الناس لفعل الخير، بجزيرة أبا على النيل الأبيض: 200 ميل جنوب الخرطوم، في يونيو 1881م. وقد لفتت دعوته انتباه قبائل النيل الأبيض، ودُعي إلى الحضور للخرطوم لاستفساره، ولكنه رفض، وعليه، تم إرسال قوة عسكرية صغيرة لمواجهته في أغسطس. نصب المهديون، الذين تلقوا بعض التدريب الأساسي في الهجوم والدفاع، كمينًا للقوة ودمروها، وقام المهدي في صباح اليوم التالي بعبور النيل الأبيض مع بضع مئات من أتباعه باتجاه الغرب وهاجر إلى قدير في جنوب جبال النوبة: حوالي 90 ميلاً إلى الشمال من حامية فشودة. كانت الهجرة خلال موسم الأمطار وبداية شهر رمضان، وهي من أهم الاسباب التي أدت إلى إعاقة أي محاولة من قبل الحكومة لحشد قواتها وتحريكها بسرعة. عندما جاءت قوة عسكرية أكبر للجزيرة أبا، وجدت المكان مهجورًا.

أرسل حاكم فشودة في ديسمبر 1881م، وبدون تعليمات من الخرطوم، قوة من 1500 رجل، منهم ألف من قبائل الشُلُك المحلية، نحو قدير. تعرضت القوة لكمين على الطريق وتقريباً تم إبادة القوة كلها بما فيها ملك الشُلُك.

في الوقت نفسه انتشرت الثورة في الجزيرة، وأبقت مناوشات المهدية الحكومة مشغولة خلال العام التالي. كانت حملة الجزيرة عبارة عن محاولة غير جادة من جانب الحكومة، وظهر ضعف موقف الحكومة عندما تم إرسال معظم حاميات سنار في مايو 1882م مع مجموعات عسكرية من الخرطوم والأبيض، إلى قدير. وجد الجيش المتجمع بالقرب من قدير نفسه غير مستعد في شهر يونيو، وقد انتصر عليهم المهدي بجيش قوامه 8,000 رجل انتصارًا ساحقاً. تعتبر هذه ثالث خسارة بالنسبة للحكومة وأكبر نصر باهر بالنسبة للمهدي حتى الآن.

منذ ذلك الحين أخذت أفواج الدعم تتقاطر إلي المهدي في كردفان ودارفور. كان المهدي قبل ذلك ولعدة سنوات يبني في دعم له في كردفان، وكان قبل أن ينشر دعوته قد قام بزيارة مدينة الأُبيِّض مرتين. وفَّر رجال الدين الدعم للمهدي مثل: المنا اسماعيل من منطقة الجوامعة بالقرب من طيارة، ومن رجال القبائل المنشقين مثل، مكي إبراهيم من الحَمَر، ومن التجار المعارضين للحكومة، مثل الياس باشا أم برير في الأُبيِّض، حيث تمكن كل هؤلاء من تجميع أعداد كبيرة من الرجال. كان المهدي في السنة الأولى بعد نشر دعوته قد أرسل خطابات إلى هؤلاء الأشخاص يعينهم كأمراء، ويلتمس دعمهم، ويشجعهم على القدوم إليه ومبايعته.

بحلول موسم الأمطار في عام 1882م، عندما كانت القوات الحكومية النظامية لا تقدر على الحركة، قام أنصار المهدي بتخفيض وإبادة كافة الحاميات المنعزلة في كردفان: أبو حراز في أبريل، وبركة وأسحف في مايو، وطيارة في أغسطس، والدلنج في سبتمبر. بعد فشل الهجوم على بارا في يونيو تمت محاصرتها، وفي أغسطس تم سحب حامية خرسي وضمها إلى بارا. أينعت الآن بارا والأُبيِّض وحان قطافها.

كان التاجر إلياس باشا أم برير، وهو من أقرباء الزبير باشا، على خلاف مع حاكم مدينة الأُبيِّض محمد باشا السيد، فقام إلياس بدعوة المهدي في قدير وطلب منه من دخول الأُبيِّض. خلال صيف 1882م قام الحاكم بإحكام وتعزيز تحصينات المدينة، التي كانت كان عبارة عن مجموعة من الأكواخ المتناثرة من القش. لصعوبة الدفاع عن كافة الأكواخ تم التخلي عنها وبناء خندق حول قيادة الحاكم والمديرية والحامية، كما تم بناء متراس ترابي بعلو 9 أو 10 أقدام وسمك 20 قدم. وعندما قدم المهدي على المدينة غادرها العديد من سكانها للانضمام إليه، بينما قام الموالون للحاكم بالسكن في المنطقة المحصنّة. وعليه أصبح يدافع عن المدينة الآن حوالي 6000 رجلاً مسلحين جيداً. قام المهدي في يوليو وأغسطس بالسير من قدير إلى الأُبيِّض كبادرة على التواضع، وأستقر في كابا، التي تبعد حوالي 5 أميال جنوب غرب الأُبيِّض، ومن ثم ابتعث اثنين من الرسل إلى حاكم المدينة يطلب منه الاستسلام. رفض محمد باشا السيد وقام بإعدام الرسل شنقاً، وعندها قامت مجموعة من الأشخاص البارزين بالمدينة بالانشقاق واللجوء إلى المهدي، وكان بينهم الياس باشا أم برير.

في يوم الجمعة التالي حاول المهدي اقتحام البلدة بقوة قوامها حوالي 50,000 رجل و5,000 حصان، وعندما وصول القوة إلى الأرض المفتوحة واقترابها من حول التحصينات غطى الغبار الأفق، وعلى حد تعبير أحد المدافعين "كان صوت الهجوم مثل هدير البحر الهائج". عند اقتراب القوات وكادت أن تقتحم حدود المدينة، فتح المدافعين النار.

وضع المهدي إيمانه في السيوف والعصي، وأظهر المدافعين قوة اسلحتهم النارية المتفوقة، وبالرغم من ذلك، كان هناك، قتال عنيف استمر لعدة ساعات، تعرضت فيه قوات المهدي للطرد، ودحرت القوات الحكومية قوات المهدي، وعلى حد تعبير أحد العيان، "اجتاحت العرب البدو بعيدًا مثل اجتياح القش". خسرت قوات المهدي حوالي 10,000 من الرجال في هذه المرحلة، وكانت هذه انتكاسة خطيرة للمهدي، عندها اقترح ضابطه الرئيسي، الخليفة عبدُ الله – كما قيل – أن ينسحبوا إلى قدير، بينما أشار الياس باشا بحصار المدينة.

نجح المهدي واتباعه سابقاً دون الاعتماد على الأسلحة النارية، حيث كانوا يعتمدون في السابق على خطط تعتمد نصب الكمائن، وعنصر المفاجأة، والاستفادة من الأغطية النباتية من أشجار وشجيرات

وغابات. وبعد أن تتفاجأ القوات النظامية، وينفرط عقد تشكيلاتها، يتم تحييد الأسلحة النارية، وعندها يفوز السيف، هكذا كانت النظرية.

بعد أن تبين للمهدي هشاشة قواته بعد أن خسر معركة يوم الجمعة، أمر بإرسال الأسلحة النارية التي تم اغتنامها إلى قدير. ثم أمر حمدان أبو عنجه، وهو من قدامى المحاربين في العديد من الحروب السابقة، بقيادة كتيبة مسلحة، سُميت بالجهادية، وكان جنودها إلى حد كبير من الرقيق السابقين والجنوبيين، وقد تم تدريبهم، وكانوا يحصلون على أجر منتظم خلال السنوات التي تلت. اعتمد جيش المهدي على العديد من الوحدات ذات الأحجام المختلفة التي تسمى بالرايات، وكان قائد كل راية إما زعيم قبلي، أو تاجر كبير، أو رجل له العديد من الأتباع.

على سبيل المثال، المنا اسماعيل، من الجوامعة، استطاع خلال بضعة أشهر أن يرفع عدد تابعيه إلى 10,000 رجل، فقد كان من عادة تجار الأُبيِّض أن يكون لديهم جيشهم الخاص المكون من المئات من الرجال.

يُنظّم المقاتلون أنفسهم في صفوف على نمط صفوف المصلين في الصلاة، ويتبعون قائدهم كما يتبع المصلين إمامهم، فقد جعلت الطبيعة الدينية لدعوة المهدي القتال واجب ديني، مما دعاهم للانضباط الذاتي والإخلاص والتفاني لهذه القضية.

قام جنود المهدي بعد موقعة الجمعة بتشديد الحصار على مدينة الأُبيِّض ومدينة بارا، وتم قطع كل منافذ الدخول إلى المدينة وأصبح هناك نقص في الغذاء، وبذلك فقد المدافعين عن المدينتين أي أمل في أي إغاثة خارجية، مما أصابهم بالاكتئاب.

لم تنقطع الاتصالات تمامًا بين المحاصَرين والمحاصِرين، وذلك بفضل رشوة الحراس، فقد قام بعض التجار في معسكر المهدي ببيع الحبوب إلى المحاصَرين بأسعار مبالغ فيها. وفي الوقت نفسه تخصّص حمدان أبو عنجه وفرقته "الجهادية" في اغتيال المدافعين عن المدينة في لحظات غفلتهم.

بانقضاء الشهر، أصبح سكان المدينة يأكلون الجلود، والصمغ والكلاب، ومات الناس من الجوع وسوء التغذية والدوسنطاريا. ذكر أحد المحاصَرين: "أن السماء كان لونها أسود من كثرة صقور الجيف التي تتغذى على أكوام الجثث المتناثرة؛ هذه الطيور القبيحة أصبحت منتفخة وثقيلة من التهامها للجثث بصورة مستمرة، إلى درجة أنها لم تستطيع الطيران هرباً من الجنود الذين أمسكوها وأكلوها بنهم".

في وقت مبكر من يناير استسلمت حامية بارا، وتم تجنيد قائدها، النور عنقرة، في جيش المهدي، ثم تحركوا جنوباً إلى الأُبيِّض ودعوا حاميتها للاستسلام، وقد فعلت في 17 يناير 1883م، وتم دمج معظم حاميتها في جيش المهدي. أصبح أحد ضباط الحامية المصريين، يوسف منصور، خبير مدفعية المهدي في كافة معاركه التالية وصولاً إلى معركة أم درمان. تم قتل قادة المدينة بما فيهم محمد باشا السيد، بينما تم العفو عن العديد وإطلاق سراحهم ليتحصلوا على الغذاء اللائق، منهم من أفرط في ذلك فمات من التُخمة.

أُنحي باللائمة في سقوط الأُبيِّض على الحاكم العام في الخرطوم، عبد القادر باشا حلمي، وتم استدعاؤه. كان عبد القادر في الواقع قائد قوي، وفعل الكثير لاستعادة سلطة الحكومة في الجزيرة، وقام ببناء دفاعات حول الخرطوم، وتجنيد أعداد كبيرة من الجند، ونصح بالتخلي عن الغرب، وتعزيز الدفاعات على طول النيل الأبيض.

أُرسل ثلاثة رجال بدلًا من عبد القادر، جميعهم يعملون لأول مرة في وسط السودان. فقد عُيَّن علاء الدين باشا صدقي في منصب الحاكم المدني العام، وكان قد عمل سابقاً في شرق السودان. كما تم تكليف سليمان باشا نيازي بكافة المهام العسكرية، وكان كلاً من هذين الرجلين من الشراكسة. وذهب منصب رئيس الأركان إلى الانجليزي وليام هكس، المعروف باسم هكس باشا.

من المفيد في هذه المرحلة تدبر عملية دخول بريطانيا السودان في عام 1883م. بعد هزيمة الجيش المصري بقيادة عرابي باشا، تحت ذريعة استعادة سلطة الخديوي، أحتلت حملة عسكرية بريطانية مصر في العام 1882م. تم حل الجيش المصري والحفاظ على الهيكل التنظيمي للإدارة المصرية، وجاء المستشارين البريطانيين لتنظيم وترتيب الفوضى والديون التي تراكمت على الحكومة المصرية.

أفادت الحكومة البريطانية بأنها كانت مسئولة فقط عن مصر. ومع ذلك أبدوا، وبحماس، أن لهم مصلحة في مصير هكس، بل وكانت قنوات اتصال هكس مع رب عمله، الحكومة المصرية، من خلال القنصل العام البريطاني، السير إدوارد ماليت. حاول ماليت إقناع رئيس الوزراء المصري، شريف باشا، بأن "حكومة صاحبة الجلالة ليست مسؤولة بأي حال عن العمليات العسكرية التي تمت في السودان تحت سلطة حكومة سموه، أو عن تعيين الفريق أول هكس، أو عن تصرفاته."

حرصت الحكومة المصرية، بسبب غضبها من الاحتلال والتدخل الأجنبي، على تأكيد استقلالها، وبالتالي حاولت أخذ موقف 'مستقل'، فقد كانت متشككة من عدم اهتمام الحكومة البريطانية، أو تقديمها لأي دعم مالي متوقع.

من ناحية أخرى، كانت حكومة السيد جلادستون البريطانية، قد جاءت إلى سدة السلطة بعد استنكارها وتنديدها بالمغامرات الإمبريالية للحكومة السابقة، كما كان قد أصابها الحرج بسبب التدخل الأجنبي في مصر، والذي زاد من مشاكلها الداخلية. علاوة على ذلك، كان التقشف الاقتصادي من أبرز مبادئ السيد جلادستون السياسية الرئيسية.

عندما أرسل ماليت تقاريره عن السودان وعن هكس المتعلقة بنقص الدعم المالي، تم تداولها في مجلس الوزراء، وعلق عليها وزير الخزانة قائلاً: "أنا لا أحب النظر في هذه الأوراق."

قضى العقيد وليام هكس ثلاثين عامًا في الجيش الهندي، وبحلول العام 1883م كان قد أصبح في عمر 53 عامًا، وشارك في العديد من الحملات الهندية، بما في ذلك التمرد، وفي حملة نابيير في اثيوبيا في 1867–1877م، ورُقّي إلى رتبة مقدم في العام 1875م، وتقاعد من الجيش الهندي في عام 1880م ومُنحت له رتبة عقيد مع مرتبة الشرف كتقدير تقاعد. عُيَّن هكس في رتبة فريق، في الجيش المصري وأُرسل إلى السودان في فبراير 1883م برفقة جيش وعدد من الضباط الأوروبيين والمصريين، حيث وصل إلى الخرطوم في أوائل شهر مارس.

انشغل هكس في الأشهر التالية بالقيام بدوريات على النيل الأبيض، وفي 29 أبريل هزم قوات المهدي في المرابيع، مما أكسبه ثقة كبيرة بنفسه. قضى هكس الأشهر الأربعة التالية في الخرطوم، يعمل على تدريب رجاله، ويوجه نداءاته لمصر بإرسال المزيد من الرجال، والمال، والذخائر، والمؤن.

بقى المهدي يعمل على تعزيز موقفه في كردفان، بينما كان هكس تحت ضغط من حكومة القاهرة لتسيير حملة إلى غرب السودان. كان هكس متهيب من المهمة، وكتب "إن القوة لدينا ليست كافية، يجب أخذ كافة الأغذية من هنا لتنفيذ حملة كردفان. سوف نسير في مناطق معادية تسكنها قبائل قوية. يجب أن تبقى خطوط الاتصال مفتوحة، كما يجب تشكيل نقاط حماية ووضع حاميات عليها بما فيه الكفاية، كما ستحتاج كل قافلة إلى دليل، بينما قوتنا العسكرية تتكون من أقل من 6000 جندي، سيسقط بعضهم مرضى خلال موسم الحميات".

كان هكس يرى أن سلطته محدودة، وكان من المتوقع أن يذعن له سليمان باشا نيازي في المسائل العسكرية التقنية، لذلك اشتكى هكس، من خلال ماليت، للحكومة المصرية، وتحت تهديد الاستقالة، حصل على مراده. فقد نُقل سليمان باشا إلى شرق السودان، وبذلك، خلا له الجو، وتبددت بالتالي أعذاره التي كانت تدفعه إلى تقديم استقالته، أياً كانت شكوكه المتعلقة بحملة كردفان. استعد هكس للزحف على كردفان، وانتقل برجاله إلى مدينة الدويم،130: ميلاً جنوب الخرطوم، في طريقه للزحف غربًا.

كان تحت قيادة هكس حوالي 8000 من الرجال، تم تقسيم سبعة آلاف من الجنود النظاميين إلى أربع كتائب، معظمهم من الجنود المصريين، على الرغم من وجود عدد من الجعليين والشايقية و"السود" (الجنوبيين والنوبيين). كان المصريين إلى حد كبير من بقايا جيش عرابي الذين قاتلوا ضد بريطانيا في العام السابق، وكان ما يقرب من 2,000 منهم قد تم استبعادهم سابقاً من الخدمة العسكرية بسبب "عيوب جسدية طفيفة". تلقى هؤلاء تدريبًا أساسياً في الخرطوم، ولكن روحهم المعنوية كانت منخفضة. كانت الإمدادات تأتي متأخرة، وكان هناك بالفعل تهديد بالتمرد. كان كبار الضباط من المصريين والأوروبيين، حيث كان أحد المصريين، حسين باشا مظهر، يتقلد منصب القائد العام لكتائب المشاة الأربع، وكل واحدة منها كانت تحت قيادة مصري، بينما كان هناك مصري آخر مسئول عن المدفعية والنقل.

رافق الحملة ستة ضباط أوروبيين، منهم رئيس أركان هكس، العقيد آرثر فاركار، الذي كان سابقًا في الحرس الذهبي القديم (كولدستريم قارد). يوصف آرثر بأنه جسور ومندفع، ومع ذلك كان، إلى درجة ما، عنيد، ويعتمد على البوصلة واختراق الغابات الكثيفة، بدلًا من التركيز على الحس السليم والالتفاف حولها. الآخر كان البارون الألماني، الرائد جيبتس فون إشكندروف، وقد رافق هكس في حملة الحبشة، وكان سميناً، وعصبي المزاج. أما ضابط المخابرات فقد كان الضابط البريطاني الوحيد الذي يعرف اللغة العربية، الميجر إدوارد ايفانز. كانت له أعمال تجارية سابقاً في البحر الأحمر، وكان يعمل في السودان من قبل، وكان يقوم بترجمة خطب هكس للجنود. كان هناك أيضاً النمساوي النقيب هيرث، من سلاح الفرسان، وقد احتفظ بيوميات أثناء الحملة، وفُقدت فيما بعد، ولكن شُوهدت مرة أخرى من قبل سجين أوروبي للمهدي، الأب جوزيف أوهروالدر، الذي وضع ما تمكن من تذكره منها في كتابه "عشر سنوات من الأسر في سجون المهدي".

من ضمن المدنيين الأوربيين الذين رافقوا الحملة، أثنين من الصحفيين، الايرلندي، ادموند أودونوفان من "الأخبار اليومية"، وله خبرة كبيرة في السفر على نطاق واسع، وقد اعتقل مرة واحدة في القسطنطينية بتهمة إهانة السلطان، ووصل إلى السودان وهو يرتدي لباس تركي، والآخر فرانك فيزتلي من "أخبار لندن المصورة" والذي جاء من سواكن إلى الخرطوم على قدميه، وكان يخطط للسير جنوباً خلال أفريقيا يرسم اثناءها لصحيفته، قبل أن يتم تحويل مهمته إلى حملة هكس باشا.

رافق الحملة حوالي 2,000 من المدنيين والأتباع، بعضهم كانت لهم مناصب رسمية، مثل جورج بيك وهو الاسم المعروف به – جورجيس ديمتريس دولوجلو اليوناني – والذي كان يعمل في منصب كبير الأطباء وجراح عام للقوات في السودان. أيضاً تم جلب البعض للمساعدة في إنشاء النظام الإداري بعد إحراز النصر المفترض على قوات المهدي، يشمل هؤلاء بوساتي بيك مدني، الذي كان مفتش المالية في السودان؛ محمود أحمداني، مصري، حاكم سابق للخرطوم؛ وحمد التلب، رئيس محكمة الاستئناف في الخرطوم. أحد المدنيين الذين قدموا مع الحملة هو عبد الرحمن بانقا، كان والده تاجر بالأُبيّض وساهم بالكثير في دعم المهدي، وقد تم اصطحابه مع الحملة للاستعانة بمساعيه الحميدة مع والده، وبالتالي "تسهيل مهمة الحملة".

كان جنود الحملة مسلحين ببنادق رمينجتون، يصاحب ذلك أربع مدافع طويلة من نوع كيرب، وستة رشاشات من نوع نوردنفلت ذات الخمس فوهات، وعشرة مدافع قصيرة المدى.

تم حمل كافة المواد الغذائية وكميات كبيرة من المياه، وقد شملت المواد الغذائية أكياس البسكويت والشعير والأرز، بينما كانت المياه في خزانات حديدية، حيث كانت تعتبر هذه المياه حصة إضافية للماء الذي سيُعثر عليه في الطريق، قال أحد الضباط المصريين المصاحبين للحملة "كان هناك 20,000 شخصاً لشرب الماء، بالإضافة إلى حوالي 14,000 من الدواب".

بدأت الحملة ب 5,500 من الإبل، ولكن معدل الوفيات بينهم كان مرتفعاً؛ و5,000 من الخيول التي مات معظمها قبل أسبوع من المعركة النهائية. ولكن، البغال 3,000 والحمير 1,000 كانت أكثر تحملاً.

تجمّعت الحملة في معسكر الدويم في سبتمبر، ورافقها حاكم عموم السودان الجديد، علاء الدين باشا صديق، وقد اندلع خلاف بينه وبين هكس على الفور حول أي طريق يجب اتخاذه إلى الأُبيِّض.

قال هكس بأن الحملة يجب أن تذهب غرباً إلى بارا، ومن ثم جنوباً إلى الأُبيِّض. كانت قبيلة الكبابيش في شمال كردفان أكثر تعاطفاً مع الحكومة، وكان هذا الطريق أقصر، على الرغم من قلة المياه به. بينما قال علاء الدين أنه ينبغي الذهاب إلى الجنوب الغربي، حيث خور أبو حبل، ومتابعة المستوطنات حيث تكون المياه وفيرة. كان هذا الطريق أطول، ومن المعروف عن قبائله أنها معادية، وفرض علاء الدين باشا رأيه.

غادرت الحملة الدويم يوم 27 سبتمبر. أراد هكس ترك مائة أو نحو ذلك الرجال في كل مكان يقضوا فيه ليلة، حيث أن من شأن هذا أن يضمن خط الرجوع والإمداد. مرة أخرى رفض الحاكم العام هذا، بحجة "أن القوة التي في حوزتنا ليست كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح بتقسيمها". وقد اعترف هكس بأن "وضع حاميات على نقاط في الطريق سوف يقلل من قوته القتالية من دون اكتساب أي ميزة".

استخدم المهدي في الأُبيِّض نظام استخبارات فعال، فقد كسب تعاطف أكثر الناس على طريق هكس. أرسل المهدي بعد مغادرة الحملة للدويم محمد عثمان أبو قرجة، وعبد الحليم مساعد، وعمر الياس مع 3,000 رجل بغرض إنهاك الحملة. كانت مهمتهم مناوشة الحملة والإغارة عليها، مع عدم الانخراط في قتال مباشر معها. بدأت الأعمال العدائية الأولى بعد عشرة أيام من مغادرة الحملة للدويم، فقد كانت القرى التي مروا بها مهجورة، وتم احتلال معسكراتهم التي قضوا ليلتهم بها بعد مغادرتهم، وكانت الآبار في طريقهم إما جافة أو دُفنت.

فاقمت الضغوط الخارجية من التوتر الداخلي.

في اليوم الذي غادرت فيه الحملة الدويم أثار خطأ إداري حفيظة هكس، وهدد بالاستقالة، وكان في خلاف دائم مع كبير الضابط المصريين، حسين باشا، وفي 8 أكتوبر تشاجر مع العقيد فاركوهار حول موضوع الأوامر.

بدءاً من 10 أكتوبر، كان يتم القضاء على كل من يسير منعزلاً أو متطرفاً خارج المعسكر، وعليه فقد اضطرت القوة إلى التجمع قريبة من بعضها البعض، ولم يُسمح لأي جندي بمغادرة المعسكر من غير سلاح. بدورها لم تكن الدواب قادرة على التجول والبحث عن العشب، وصارت الجمال تتناول أي شيء يمكن أن تلتقطه داخل المعسكر، فقد أكلت القش الذي تملأ به الحشية (الطافة) التي توضع تحت السروج. نتيجة لذلك حزّت السروج الخشبية جلودها وسببت لها جروح مؤلمة. وبحلول 15 أكتوبر توفي أكثر من مائة من الإبل من العطش، وحدث هذا، وفقًا لهكس، نتيجة لعدم كفاءة من قاموا بتوزيع حصص المياه.

انخفضت الروح المعنوية أكثر، والتي كانت أصلاً منخفضة، بسبب العطش، والذي تفاقم بسبب الإفراط في تناول الفول السوداني. من ناحية أخرى، وجد العديد من الجنود المحظوظين ثمار البطيخ. ارتفعت المعنويات بعض الشيء قبل أيام من منطقة الرهد، عندما صدت القوة هجومًا لقوات المهدي وفقدت رجل واحد فقط، وجاء المزيد من الانفراج "عندما شوهد البط يحلق فوق بركة كبيرة ".

عسكرت قوات هكس وارتاحت لفترة خمسة أو ستة أيام بالقرب من مساحة من الأرض مغطاة بالمياه، لا تزال موجودة، وليس بعيدًا من معسكر قوات المهدية، ولكنه اختفى عندما تحركت قوات هكس. كانت الحملة على علم بأن أعداد جيش العدو تتزايد يوميًا.

تحركت الحملة في 30 أكتوبر من الرهد، وفي اليوم التالي على بعد مسيرة خمسة أميال كان يتم قنصهم باستمرار، وبعد يومين وصلت القوة علوبة.

حدثت هذه الدراما طوال الخمسة أيام السابقة في مثلث، تمثل قاعدته الخط بين علوبة والبِرْكَة، اللذان يبعدان حوالي 35 ميلًا إلى الجنوب من مدينة الأُبيِّض. البِرْكة – مستنقع الماء – عبارة عن بحيرة كبيرة حولها عدد من المستوطنات، حيث كان بإمكانها تلبية احتياجات الجيش. كانت الأُبيِّض في قمة المثلث بينما الجزء السفلي من المثلث، تقطعه حالياً خطوط السكة الحديد، عبارة عن أحراش كثيفة من أشجار الكِتِر، وهي أشجار ذات أشواك صلبة للغاية يصل طولها إلى حوالي ثلاث بوصات. تقع غابة شيكان – تعني في اللهجة العربية مجموعة أشواك– على بعد عشرة أميال شمال علوبة على الطريق إلى الأُبيِّض. على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال من بحيرة علوبة تقع بحيرة أخرى وهي، على عكس البِرْكَة، موسمية. هذه البحيرة تسمى "فولة المصارين" أي بِرْكَة الأحشاء، سُميت على معركة جرت قبل وقت طويل من وقوع الكارثة النهائية لهكس، "عندما التهمت النسور أحشاء القتلى".

بقي هكس يومي الخميس 1 نوفمبر والجمعة 2 نوفمبر في علوبة، وحينما أحضر له رجال الاستطلاع خاصته، والذين كان لا يثق فيهم، عدة مئات من منشورات المهدي الموجهة إلى الحملة والتي دعاهم فيها لوضع ثقتهم في الله، والنبي والمهدي بدلاً من المدافع وقوة النيران، قام بأحراق كل ما أمكنه منها.

أعتزم هكس التحرك غربًا إلى البِرْكة حيث وفرة المياه، وكانت تحركاته يتم الإبلاغ عنها للمهدي بانتظام. تحرك المهدي مع ما يقدر بحوالي 50,000 من الرجال في 1 نوفمبر من الأُبيِّض متجهاً إلى الجنوب حيث قضى ليلته في فرتنقول التي تقع في منتصف الطريق بين الأُبيِّض والبركة. كان المهدي على علم بخطط هكس وأرسل يده اليمنى، الخليفة عبدُ الله ومعه محمود عبد القادر إلى البركة. قامت قوات

المهدي في 2 أكتوبر تحت قيادة الخليفة عبدُ الله باحتلال البحيرة في البِرْكة ، بينما كان المهدي ما زال في فرتنقول. بلغت هذه المعلومات هكس في وقت لاحق من نفس اليوم على بعد خمسة عشر ميلاً.

غادر هكس علوبة فجر اليوم التالي، السبت 3، باتجاه الشمال نحو فولة المصارين، وبعد عشرة أميال قامت القوة ببناء حظيرة قوية وعسكرت بداخلها. عندما سمع بعض حلفاء المهدي ممن كانوا في منطقة جعيبات بأن هكس تحرك شمالاً، ساروا شرقًا عبر الغابة حتى وصلوا إلى قرب العدو إلى حيث تراءت لهم نيران معسكرهم تلتمع من خلال الأشجار. غادر المهدي في الوقت نفسه فرتنقول، وذهب إلى البِرْكة. بعض رجال المهدي لم يكونوا واثقين بالدرجة التي يجب أن يتحلى بها من كان في موقعهم القيادي. أحدهم، الحاج إبراهيم قال للمهدي: "إنهم يسيرون للأُبيّض لسبي نساءنا. يجب علينا عدم الذهاب إلى هناك مسبقًا؟

أجابه المهدي بلغز، حيث بصق على يده، وقال له 'ما هذا؟'

"البصاق"، قال الحاج إبراهيم.

ثم رمى المهدي به على الأرض، حيث سرعان ما تبخر، وقال:

"نحن الأرض، والأتراك هم البصاق.

ثم أردف: إذا طارت الطيور فأين تهبط؟

"على الأرض"، أجاب الحاج إبراهيم.

"إن الأتراك هم الطيور ونحن الأرض".

"يجب أن تطمئن، وتؤمن بقوة الله، وليس الأتراك. سيكون يوم الاثنين هو يوم الحساب، إذا تأخر أي أحد منكم في ذلك اليوم، مثلاً: لإصلاح نعله، فإنه لن يجدهم على قيد الحياة".

في صباح اليوم التالي، الأحد 4، تحرك المهدي شمالًا ووصل إلى فولة المصارين قبل منتصف النهار، حيث ستكون هذه قاعدته الرئيسية لليوم أو اليومين التاليين. وقد أشار أحد مرافقي المهدي إلى اسمها المشؤوم، قائلاً:

"يسمى هذا المكان بركة المصارين".

أجابه المهدي:

"سوف نرمي بأحشاء الأتراك هنا".

تحرك جيش هكس من الزريبة في يوم الأحد 4 في تشكيل ضيق للمربع، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون جيداً بأنهم محاطون. احتل حمدان أبو عنجه، قائد فرقة الاسلحة النارية، الجهادية، المنطقة التي غادروها، وبالتالي سدَّ عليهم خط الرجعة.

هاجم أبو عنجه خلفية الجيش، وحينها ألتفّت الكتيبة الأولى في الأمام سريعاً وحاولت دفعهم للخلف انفرط عقد مربعهم. سقطت العديد من الجمال التي تحمل المياه خارج المربع، ولأن القتال اشتد، فلم يكن هناك طريقة لاستردادها، كما فُقدت البنادق أيضًا لنفس السبب. أمر هكس الفرقة الموسيقية بالعزف، ولكن استمرت الجمال والبغال والرجال في السقوط، وتم التخلي عن محاولة العزف الضعيفة لرفع الروح المعنوية. وفقًا لمذكرات النقيب هيرلث "كنا متجمعين ومتكتلين معاً، بالتالي لم يكن الرصاص ليخطئنا". من بين القتلى في هذه المعركة كان الطبيب اليوناني، جورج بك.

أوقف المهدي الهجوم، وكانت الروح المعنوية في الجيش المصري في أدنى مستوياتها، فقد تآمر بعض التجار على التمرد. وبالفعل في وقت سابق قبل بضعة أيام، وُجد عبد الرحمن بانقا يكتب رسالة إلى والده، الذي كان مع جيش المهدي، يطلب نصيحته حول ما إذا كان يجب يهرب. كان التجار، بقيادة قناوي بك، والذي كان الحاكم العام يقترح تعيينه محافظ لبحر الغزال، قد خططوا لخطف الأسلحة والخروج بها من المربع، وقد أحبط هذا التمرد بوساتي بك مدني. دعا هكس لاجتماع لضباطه وطلب اقتراحات للتصرف حيال الوضع، ولم يجبه أحد، عندها قرر هكس أن يثق ويعتمد على الله.

في صباح اليوم التالي الاثنين 5 نوفمبر، تحرك هكس وجيشه من الزريبة في ثلاثة مربعات، في تشكيل مثلث متساوي الأضلاع، كل مربع يبعد عن الآخر 300 ياردة، بينما وضعت الأمتعة والذخيرة في المنتصف. كان هكس وأركان حربه في المقدمة، يليهم ما تبقى من المدفعية وأربعة من المدافع، يلي ذلك المربع الأول وبعد ذلك المربعين الآخرين بينما جُعل الفرسان لحراسة المؤخرة والأجنحة.

في هذه الأثناء، في الفولة على بعد ميل واحد، دعا المهدي أمراءه، وأمَّ الجيش في الصلاة، وأمر أبو قرجة وعبد الحليم مساعد بمهاجمة مؤخرة الجيش، وعبد الرحمن ود النجومي، يدعمه الخليفة عبدُ الله وشقيقه يعقوب، والخليفة علي ود حلو، بمهاجمة الأجنحة.

كان القتال بصورة عامة شرساً، وكان جيش هكس مُحاطاً به من كل الجهات، نتيجة لذلك، أخذوا يطلقون النار بصورة عشوائية، مما أدي لقتل بعضهم البعض. خسر جيش المهدي أيضاً المئات من الجنود. قام هكس بشق طريقه إلى اليسار، فحاول الحاكم العام، علاء الدين، متابعته، فقتل في محاولته الوصول إليه. كان التفوق الكبير في عدد الجنود، والروح المعنوية العالية لجيش المهدي، السببين الرئيسين في الانتصار الساحق على جيش هكس، فقد تم إبادته جميعاً، باستثناء اثنين من صغار الضباط وحوالي 300 رجل، ويروى أن القتلى بلغوا سبعة ألف. قال أحد الناجين بعد سنوات، إنه تمكن مع آخرين من الفرار إلى الجنوب، ورغم ملاحقته، إلا أنه قال "أنهم كانوا مشغولين بشدة عنا بجمع الغنائم".

مضت عدة أيام وجيش المهدي يجمع في الغنائم، والأسلحة والذخيرة، ومواد التموين، ويقسمونها بينهم، بحيث يأخذ المهدي الخمس والباقي لخزينة الدولة المهدية. بعض بنادق ريمنجتون وجدت طريقها إلى جبال النوبة حيث ظلت لأجيال تعرف باسم بندقية هكسي.

لم يكن هكس باشا في مأمن من الانتقاد، بالرغم من أنه مات كجندي وتم النظر إلى وفاته كما نُظر إلى وفاة المسكين الفريق أول غوردون على أنهم ضحايا الأخطاء السياسية للآخرين. ومع ذلك، فقد أظهرت مطالعاتي، أن هكس كانت له عيوب كبيرة كفريق أول. أظهر القليل من قدراته القيادية، كما لم يكن قادراً على فرض إرادته الغير قابلة للنقاش على الضباط الآخرين. فقد أشتبك في مشاحنات غير لائقة مع رئيس أركانه وكبير الضباط المصريين. كما نضبت افكاره عشية المعركة، حينما ناشد ضباطه للتقدم بمقترحات حول كيفية التصرف. من الصعب أن نتصور أن هذا الافتقار إلى السلطة يمكن أن يظهر عند غوردون أو كيتشنر، أو المهدي أو الخليفة.

لا تُدهش حياة هكس العملية، بطريقة ما، كثيراً. فحينما كان بالجيش الهندي لم يرتقي أبدًا إلى أعلى من رتبة مقدم. ثم تمت ترقيته بسرعة نظراً لدخوله في مرحلة كبر العمر، اعتبارًا للمعاش التقاعدي، من غير

أن يخوض تجارب عملية. كانت آخر خبراته العسكرية في المعارك هي في رتبة اللواء في حملة أثيوبيا قبل ستة عشر عامًا. في الواقع، كانت صفاته صفات ضابط صغير – توتر في العلاقات بين الزملاء، واهتمام بالتفاصيل الإدارية الصغيرة. هذه الصفات جديرة بالثناء عند صغار الضباط، ولكنها غير مناسبة لشخص في رتبة فريق أول.

على النقيض من ذلك، أظهر المهدي موهبة كبيرة كقائد عسكري، فقد استغل كل مميزات بيئته الطبيعية، وكان قادرًا على تفويض المهام، وأظهر قدرة كبيرة على ضبط النفس في انتظار توغل الحملة حتى يضرب ضربته القاصمة الأخيرة ويطلق رصاصة الرحمة، بالرغم من أنه ربما كان مستوعباً لكارثة يوم الجمعة التي حدثت قبل عام في مدينة الأُبيِّض. ولكن بالرغم من كل ذلك، فقد أظهر صفات القيادة، ولم يشك أبدًا في قَدرِه، وحافظ على معنويات جنوده عالية.

كانت العزلة التامة رفيق الحملة. كتب البروفسير مكي شبيكة: بعد أيام قليلة من مغادرة الحملة للدويم "كانت الحملة عبارة عن حصار متحرك". تساعدنا هذه الصورة الحية لنرى كيف طبق المهدي تكتيكاته التي طبقها في بارا والأُبيِّض على حملة هكس.

نتائج معركة شيكان

كانت تأثير المعركة عميقاً وواسع الانتشار. فقد أصبح المهدي على قمم الأمواج، يلقي بعينيه في وقت واحد نحو العاصمة الخرطوم وسكانها، يكتب لهم ويدعوهم لمبايعته، واكتسب سمعة دولية ووفدت إليه وفود من الحجاز، والهند، والمغرب.

بالنسبة للحكومة كانت النتائج كارثة إضافية. فقد تم سحب كافة الحاميات جنوب الخرطوم، باستثناء حامية سنار، وانهارت سلطة الحكومة في دارفور، وبحر الغزال، بينما بقيت الاستوائية تحت النفوذ المصري، وبدأ رسم ما تلى من تسلسل للأحداث التي أدت إلى مجيء غوردون إلى الخرطوم. كان لذكرى كارثة هكس ومقتل غوردون أثرها البارز على إعادة احتلال السودان بعد خمس عشرة سنة، وبعد أكثر من عقد من استقلال السودانيين.

تم إعادة كردفان إلى السيطرة المصرية، أو بالأحرى الأنجلو/مصرية في عام 1899م، وعلى الرغم من تفكك سلطة المهدية في كردفان في 1898– 1899م، فإن الحكام الجدد في الغرب كانوا لعدة سنوات قلقين بشأن وضعهم الأمني. زار الحاكم العام، السير ريجنالد ونجت، ساحة معركة شيكان في شتاء عام 1905– 1906م، وكتب بعد زيارته "ليس لدي أي تردد في المخاطرة بالرأي التالي: لو أن محاولة استعادة الأُبيِّض قامت بها قوة أكبر وأكفأ كثيراً من قوة هكس، لما اختلفت النتيجة. بعد عامين أعرب ونجت عن قلقه في رسالة خاصة "سوف أشعر دائمًا بالعصبية والتوتر حيال وضعنا في كردفان. في الواقع، إذا قامت ثورة مماثلة لتلك التي وقعت في عام 1883م قبل اكتمال خط السكة حديد، فإنه ربما يكون من المستحيل إغاثة حامياتنا المعزولة هناك وتوقع أي فرصة معقولة للنجاح".

تم بناء خط السكة الحديد إلى الأُبيِّض في العام 1911م، وتم تمديده إلى دارفور في عام 1950م، ويفصل هذا الخط البِرْكة من ساحة المعركة، كما أن هناك محطة للسكة الحديد تدعى شيكان، كما يوجد بموقع المعركة نُصُب تذكارية على كلا الجانبين. وفي أرض المعركة حيث كان القتال الرئيسي، فإن القليل من الحَفْر سوف يكشف أجزاء من العظام وأحيانا أزرار وقطع من المعدات أو أجزاء من الأسلحة: أنها تنبش ذكريات قاتمة للمأساة الفظيعة التي وقعت في نوفمبر 1883م.

الفصل الثاني

الفريق أول غوردون وحصار الخرطوم

1884-1885م

كانت ليلة 25 يناير آخر ليلة قضاها الفريق أول جورج غوردون، الحاكم العام في السودان، حياً. لقد تم قتله في حوالي الساعة الخامسة صباحاً فجر الاثنين 26 يناير في القصر الرئاسي بالخرطوم. الأحداث الدرامية لوفاته بعد حصار طويل لمدينة الخرطوم معروفة جيداً. كانت الصفات الشخصية لغوردون – خيالي، ورع، لا يخاف بتاتاً، ولا يؤثر نفسه إطلاقاً – تجد التقدير في الأوساط البريطانية والأوربية. كان يعتبر قدوة كبطل مسيحي، وقد تم النظر إلى موته بكثير من التأثر. كما تم تفسير رسالته السياسة وفشله، كصراع بين المسيحية والإسلام، وبين قوى الظلام وقوى النور. وقد أُلمح البعض إلى أوجه الشبه بينه وبين المسيح، وصدرت كميات ضخمة من المنشورات تسترسل بإسهاب في أحداث موته في سبيل الدين.

سوف اركّز في الدقائق التالية على الظروف السياسية لبعثة غوردون، ماهي مشاكله العملية؟ ماهي الخيارات التي واجهته؟ السياق المحلي وقتها؟ من هم المحاصِرين؟ ومن هم المحاصَرين؟

كانت الخرطوم في بداية الثمانيات من القرن الثامن عشر عاصمة للسودان، الذي يتبع للخديوي، حاكم مصر. كان السودان تحت الاستعمار المصري منذ عشرينيات القرن الثامن عشر، وكان الغرض هو استغلال ثروات السودان المعدنية المزعومة – خاصة الذهب– ولكنه وفّر العبيد والجنود لجيش الخديوي. أصبحت الخرطوم والأُبيِّض مراكز تجارية مهمة لتجارة الرقيق والعاج والصمغ وريش النعام، وصارت حدود الحكم المصري محصورة في سلسلة من الحاميات بالمدن الرئيسية، تقوم بالتغلغل خارجها فقط لجمع الضرائب. تم استيراد بعض ابتكارات الصناعة الأوروبية لأول مرة مثل: البواخر والخدمة البريدية والتلغراف والسكة الحديد والعمليات الإدارية الحكومية الحديثة، والمستشفيات والمدارس، ولكن في نفس الوقت، يجب أن لا نُضخِّم درجة تطور هذه الابتكارات. كان الخطاب من الخرطوم إلى الفاشر يأخذ 11 يوم، في أوائل ثمانينات القرن الثامن عشر، ومن الخرطوم للأُبيِّض 4 أيام.

كان سكان الخرطوم في بداية الثمانيات من القرن الثامن عشر خليط من البشر بلغ تعدادهم 50000 نسمة تقريباً، من هؤلاء، وفقاً لما ذكره العقيد ستيورات نائب غوردون، 30000 – 35000 من الرقيق. كان هناك العديد من التجار المصريين والمسؤولين الأثرياء بما فيهم أقباط يعملون في وظائف الكتبة، والمحاسبين والباعة. كما كان هناك العديد من السودانيين من قبائل الدناقلة والشايقية والجعليين ممن

يعملون كباعة وبحارة صغار. بينما كان الرقيق من الجنوبيين، والنيليين، وقبائل الباري، ومن مناطق جبال النوبة، ودارفور والفونج.

كان الأوربيين من سكان الخرطوم مجموعة مختلطة من الناس، الكثير من اليونانيين، والنمساويين، والإيطاليين، وبعض البريطانيين المتجنسين[1] بما فيهم مالطيين وهنود غرباء الطبع، كما كان هناك يهود وسوريين وجزائريين وأثيوبيين.

كان يعتبر النهر في القرن التاسع عشر مهماً جداً كوسيلة اتصال. كانت أجمل المنازل تطل على النهر وتنتشر فيها الأرصفة البحرية الصغيرة، بمثابة مرافئ صغيرة توضع فيها الحبوب ومواد التموين الأخرى التي تُجلب من القرى التي تقع على ضفاف النهر. بالطبع لم يكن هناك جسور، ولكن كانت هناك معدّية تعبر النهر بصورة منتظمة إلى الخرطوم بحري من مرفأ قرب الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية الآن. كان للقصر الرئاسي، الذي شُيَّد في السبعينات من القرن الثامن عشر، طابقان، ويحتل ذات الموقع الحالي، ومن المثير ملاحظة أنه تم تصميمه للوصول إليه من النهر، حيث يمكن مشاهدته في أفضل حُلّة.

تقع غالب أجزاء المدينة جنوب وغرب القصر. كان هناك الكثير من الشوارع الوعرة الضيقة التي تمتلئ بالأوحال خلال موسم الأمطار، كما كان هناك العديد من المناطق التي يطلق عليها حلة أو قرية، وكانت عبارة عن مجموعة متكدسة من المستوطنات. بالكاد الآن لم يتبقى أي مبنى من ذلك العصر، فهناك بعض القبور في شارع البلدية، وحائط في مباني مكتب مفوض الخرطوم قد يعود تاريخه إلى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر.

تقع حلة موسى بيك مباشرة غرب وجنوب القصر، وكانت منطقة مكاتب وسكن لمتوسطي الحال. وعلى امتداد النهر، قرب ما يعرف حالياً بالفندق الكبير، كانت حلة "منجرة" والتي كان بها ورش للصناعات النهرية. أما في الخلف، في الجنوب الغربي فقد تم بناء شاطئ رملي على ارتفاع ما يقرب من ثلاثة أقدام، أسمه "تَرَس"، تم بناؤه ليحمي المدينة من فيضان النيل الأبيض، ويمثل علامة على حدود المدينة

[1] يعرفون أيضاً بمواطني الكومنولث، سكان المستعمرات البريطانية.

من تلك الجهة، وكان يوجد بداخله مجموعة من المنازل الصغيرة وأكواخ الطين يسكنها الحرفيون والعاهرات.

على الجانب الشرقي من المدينة، في موقع محطة التاكسي المركزية وقيادة الخطوط الجوية السودانية الحاليين، كان يقع السوق والمسجد. تم بناء مسجد الخرطوم الرئيسي في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، أما السوق، فلا بد من أنه كان مثل "السوق العربي" الحالي: بعض المحلات المبنية، والعديد من المتاجر الصغيرة، وبعض المعروضات الجانبية، يتاجرون في المنتوجات المحلية، والكماليات المستوردة الرخيصة الثمن. أخيراً، كانت المنطقة المحددة بشارع القصر، وشارع المستشفى، وشارع الجمهورية، تسمى "سلامات الباشا". كانت يسكن هذه المنطقة فقراء السودانيين، كما كانت تعتبر، كما هو الحال الآن، "المنطقة الحمراء"[2] للمدينة.

كانت الخرطوم مدينة أجنبية وتمثل قوة الاستعمار. ردود الفعل على وجود الأجانب وطرق عيشه تمثلت في صورة دينية. فقد بنى المصريون المساجد وجاءوا بحكومة تسيطر عليها هيئة دينية من المسئولين والتي يبدو أنها تتعارض مع التقوى الشعبية المنتشرة في الريف السوداني. فيما يتعلق بالابتكارات التي جاء بها الحكم – أحد مرادفات كلمة 'ابتكار' في اللغة العربية 'بدعة'– لذلك لم يكن مستغرباً ظهور صيغة دينية كمعارضة للحكم الأجنبي. هذه المعارضة تركزت في رجل دين من دنقلا اسمه محمد أحمد، والذي أعلن نفسه المهدي المنتظر. خلال الفترة 1881 – 1883م بنى المهدى لنفسه حركة شعبية واسعة وضع أسسها من مناطق النيل الأبيض وكردفان. تم هزيمة كافة الحملات التي أرسلت من الخرطوم لدحر المهدي وحركته. تميزت حركة المهدي بصفات مشتركة مع حركات إسلامية متعصبة أخرى تمسكت بنقاء وطهارة السنوات الأولى بالمقارنة مع التفسخ في السنوات الحديثة.

يبدو أن النجاحات العسكرية الاستثنائية للمهدي ضد جنود يفوقون جيشه تنظيمًا وتسليحًا بصورة كبيرة قد أكدت مزاعم دعوته. فقد سقطت الأبيض، المدينة الثانية في السودان، في يناير من العام 1883م في قبضته بعد ستة أشهر الحصار.

[2] المترجم: منطقة الفسق والدعارة وشراب الخمور.

بالتزامن مع صعود المهدي، سقطت مصر تحت السيطرة الأوروبية وبشكل خاص البريطانية. احتلت القوات البريطانية مصر في عام 1882م وكان البريطانيين يحكمون البلاد بشكل غير مباشر لفترة جيلين قادمين. كانت السيطرة تتم عن طريق المستشارين، وكانت السلطة البريطانية الرئيسية في يد الحاكم العام. تم تعيين ايفلين بيرنج، لورد كرومر فيما بعد، الحاكم العام في صيف عام 1883م وبقى في منصبه حتى عام 1907م، وكان هو الحاكم الفعلي لمصر خلال هذه السنوات والتي عُرفت "بحكومة الوصاية"، على الرغم من بقاء الخديوي والوزراء المصريين كحكام صوريين. قام جيش مصري على رأسه ضباط بريطانيون بقيادة هكس باشا في العام 1883م بالمجيء إلى السودان للتخلص من المهدي، ولكن تم ذبح جيشه في شيكان في 5 نوفمبر 1883م.

تسببت هذه الأخبار في هلع في الخرطوم، وذعر في القاهرة وعدم رضا في لندن. فقد شعرت الجاليات الأجنبية الثرية في الخرطوم بتهديد لممتلكاتها ورفاهيتها، بينما خشيت الدوائر الرسمية في القاهرة من انتشار ثورة المهدي في بلدات وقرى صعيد مصر. وعليه اضطرت حكومة السيد جلادستون الليبرالية في لندن، والتي كانت تترنح أصلاً تحت سلسلة من الأزمات الداخلية، على مضض أن تفعل شيئًا حيال هذه الأزمة في بلد بعيد جداً، ولا يُعرف عنه إلا القليل، والمفهوم منه أقل من ذلك.

أصبح الآن هناك ثلاثة مراكز لصنع القرار في السودان، لندن، القاهرة، والخرطوم، وكانت هناك ثلاثة مناطق ذات سيادة مستقلة وسلطة غير مباشرة. كان هذا الوضع المضطرب سياسيًا هو الذي زُرعت فيه بذور هلاك غوردون.

وافقت حكومة القاهرة على الفور على إخلاء الحاميات المصرية من السودان، بينما كان الرأي العام، المتفاعل بقوة مع المسألة في بريطانيا، يرى بطريقة ما أن غوردون هو الحل لمواجهة هذا الأمر في السودان. خضعت الحكومة الضعيفة والمنقسمة لمطالب الرأي العام وحاولوا حث بيرنج لقبول غوردون مبعوثًا في الخرطوم، بالتالي خضع بيرنج، القليل الخبرة المتشكك، لمطالب الحكومة البريطانية وحاول بدوره حث الحكومة المصرية على قبول غوردون مبعوثًا في الخرطوم. قبلت الحكومة المصرية، التي شلَّ المستشارين الأجانب فعاليتها، بسرعة على افتراض أن مسؤولية أي عواقب غير متوقعة ستقع على عاتق الحكومة البريطانية.

بدورها تنفست الحكومة البريطانية، التي يقودها رجل كهل مريض وكانت ما بين مطرقة الرأي العام وسندان المعارضة القوية، الصعداء على افتراض أن مسؤولية أي عواقب غير متوقعة ستقع على عاتق الحكومة المصرية.

بالتالي كانت مهمة غوردون قد تحددت، ولكن، لماذا غوردون؟

كان لدى غوردون بالفعل خبرة كبيرة في السودان. فقد خدم في الفترة من 1874 – 1876م كحاكم عام للاستوائية، و1877– 1880م كحاكم عام للسودان. أثناء فترات حكمه هذه كان معارضًا قوياً لتجارة الرقيق، وكان التزامه بالديانة الإنجيلية المسيحية قوياً، ووفرت له شخصيته وطرقه غير التقليدية سمعة هائلة بين الأفراد الجدد المتعلمين من ضمن الطبقة الدنيا من الطبقة المتوسطة في بريطانيا. كان غوردون في تلك الآونة في أوائل الخمسينات من عمره، وكان قد قضى أكثر حياته كجندي في مناطق بعيدة من العالم، وكان يعتبر سلطة نافذة في عالم ما كان يسمى بالحروب البربرية.

لطالما ابتعد غوردون عن الدعاية لشخصه في بريطانيا، ولكنه أنفق قدرًا كبيرًا من حياته والكثير من وقته وجهده وماله في خدمة الشباب المعوزين. ألهم إخلاصه في العمل كل من عمل معه، على الرغم من أن حكمه كان في بعض الأحيان خاطئاً وسلوكه متهور. كان غوردون لا يحمل عُقداً في نفسه، واسع الحيلة، ولا يكن ضغينة لأحد. كان هذا هو الشخص الذي أرسلته حكومتان إلى الخرطوم.

قامت الحكومة البريطانية بتكليف غوردون – في دور استشاري – بالذهاب إلى الخرطوم ورفع تقاريره وتوصياته عن أفضل الطرق لإخلاء السودان، ولقبول أي مهمة تعطى له من قبل الحكومة المصرية. وقد جعلت منه الأخيرة الحاكم العام للسودان – في دور تنفيذي – وكانت مهمته تتلخص في تنفيذ انسحاب القوات المصرية، وتوظيف 'أفضل الوسائل والترتيبات الضرورية اللازمة لسلامة تلك القوات والموظفين، والسكان، والتجار، سواء المحليين أو الأجانب' الذين قد يرغبون في المغادرة، واتخاذ الترتيبات اللازمة لتشكيل حكومة تخلف حكومته في السودان.

لم يكن من الواضح من سيوفر الدعم اللازم لهذه المهمة المفتوحة. كما لم يكن واضحًا ما كان سيحدث

إذا تعارض دوره الاستشاري مع التنفيذي. مرة أخرى، من هم الذين كان الذين سيتم اجلاؤهم؟ جميع الحاميات؟ بما في ذلك تلك الموجودة في الاستوائية وبحر الغزال؟ وكيف ستكون نصيحته ملزمة للآخرين؟

قبل غوردون التكليف، وغادر إنجلترا في يناير، ووصل الخرطوم يوم 18 فبراير 1884م، وسعى على الفور لإضعاف جاذبية المهدي عن طريق إصدار بعض الإصلاحات. خفّض الضرائب إلى النصف، ألغى بعض المتأخرة منها، وأطلق سراح العديد من السجناء، وعطّل المرسوم الخديوي الذي صدر منذ 1887م بحظر العبودية. كان يأمل من وراء إزالة هذه القوانين الحكومية التي لا تحظى بشعبية أن يوقف سيل المعارضة. ثانيًا، قام غوردون بالتخطيط لحكومة سودانية بعد الانسحاب، وكان يريد رجل ذو نفوذ وسلطة ليكون بديلاً مناسباً، وقد وجد ضالته في الزبير باشا. كان الزبير في ذلك الوقت تاجر قوي المراس وله خبرة قديمة في تجارة الرقيق، وكان يعيش في منفاه بالقاهرة في ذلك الوقت. كان جعلي من أب جعلي، وكان وعائلته من الخصوم الرئيسين لغوردون في خلال فترات حكمه السابقة في السودان، حينما كان الزبير محافظاً لبحر الغزال. كان الزبير رجل له ثروة، ونفوذ، وقدرات عسكرية وإدارية.

كان اقتراح غوردون صائباً، ولكنه لم يجد الدعم، فقد اضطر تحت ضغط جماعات الضغط (اللوبي) الخاصة بمكافحة الرق في الحكومة البريطانية إلى رفض هذه الفكرة. كان البديل تكوين مجلس في الخرطوم من زعماء القبائل والمسؤولين والتجار، فقام غوردون قام بتعيين المهدي سلطاناً على كردفان، وطلب منه البقاء هناك، وأعرب عن أمله في تحسين العلاقات. وفي الوقت نفسه، قام بالمزيد من محاولات عزل المهدي، فرتّب لقيام علماء الدين والزعماء الدينيين في الخرطوم، بكتابة رسالة للعامة يدحضون فيها ادعاءات المهدي. كانت هذه مجمل خطط غوردون لنشر السلام.

تدّبر غوردون، في الوقت نفسه، خياراته العسكرية. كانت موارده العسكرية تتلخص في حامية من حوالي 5000 من الجنود النظاميين، يعززه ربما نفس العدد من الجنود غير النظاميين. كان هناك أسطول من البواخر التي حافظت على اتصالاته مع العالم الخارجي. في الواقع، كان اعتماد غوردون على البواخر سمة من سمات إدارته للحصار. عكس هذا أهمية النهر للخرطوم في القرن التاسع عشر، هذا النهر الذي

ربط السودان والقاهرة. كتب أحد المؤرخين، "إن المصريين يعتمدون على نهر النيل في حين يخشى المهديون منه؛ بنى المهدي التحصينات على ضفاف النيل (في أم درمان) بينما فعل المصريون العكس".

كانت التحصينات تبعد عن الخرطوم مسافة ميل أو اثنين. بنيت لأول مرة من قبل الحاكم العام السابق، وقام غوردون بتحسينها. كانت التحصينات عبارة عن خندق بعمق ثلاثة أمتار وعرض أربعة أمتار، مع متراس في جانب المدينة. كان خط التحصينات يمتد من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض، حيث كانت بدايته بالقرب من جسر النيل الأزرق الحالي وبوابة بري، حيث كانت البوابة تمثل بوابة الخروج لقرى النيل الأزرق. كان هناك أيضًا طابية بري، حيث كانت تحتل أرض الجامعة. امتد المتراس في خط موازي للسكة الحديد تقريبًا (لا تزال واحدة أو اثنين من العلامات المحددة لخط التحصين هذا موجودة حتى الآن).

كان هناك بوابة أخرى على بعد 3000 متر، وقليلًا إلى الشرق من محطة السكة الحديد الحالية، تسمى بوابة المسلمية (بلدة قديمة قرب ود مدني)، وبجانب البوابة كانت هناك طابية أخرى. بمتابعة السكة الحديد، مرة أخرى، وعلى بعد 1500 متر كانت هناك البوابة الثالثة، بوابة الكلاكلة (الكلاكلة قرية تقع على الطريق إلى جبل الأولياء). كانت تقع هذه البوابة على جسر الحرية الحالي فوق السكة الحديد على طريق الشجرة، وكان هناك طابية ثانية تقع قليلاً إلى الغرب، ثم يواصل المتراس امتداده لمسافة 4000 متر وحتى التقاءه بالنيل الأبيض.

كان هناك ثلاث طوابي أخرى تحت تصرف غوردون؛ طابية المقرن التي كانت تقع تقريبًا في موقع حدائق المقرن الحالية قرب جسر النيل الأبيض المؤدي إلى أم درمان. طابية الشمال، التي تقع مقابل القصر، وكانت في الأصل مسكن خاص. وطابية أم درمان، وتقع قليلاً إلى الداخل من النهر، جنوب جسر النيل الأبيض.

اثناء ذلك، ماذا كان يفعل المهدي؟

بقي المهدي في مخيم الرهد، ستين ميلاً جنوب شرق مدينة الأُبيِّض، حتى أكتوبر 1884م، يعمل على تنظيم قواته. فقام بإصدار بعض الترتيبات العسكرية من خلال سلسلة من المراسيم – منشورات – والذي حدد فيها التسلسل القيادي في جيشه.

يدعو الدين في السودان إلى الانضباط والتنظيم بصورة نادرًا ما نجدها في مكان آخر. عندما نرى المسلمين السودانيين أثناء الصلاة، نجد الرجال يقومون بتشكيل أنفسهم بشكل تلقائي في صفوف مرتبة وراء القائد، أو الإمام في الصلاة. ومن أكثر التجارب إثارة للمشاعر حضور أحد الاحتفالات الإسلامية، حيث نجد مئات من الرجال في مساحة صغيرة نظموا أنفسهم في صفوف، في دقيقة واحدة أو دقيقتين، ونجد إن حركات الصلاة من ركوع، ووقوف، وسجود تمارس بصورة متكررة ومنضبطة مثل حركات جنود المشاة في طابور العرض. شكلت هذه الجماعات من المصلين خلف الإمام، وحدات القتال الأساسية في قوات المهدي. هذا التنظيم والانضباط أوتي ثماره في الانتصارات العسكرية التي جاءت في وقت مبكر من المهدية. أعداد هذه الوحدات الأساسية يمكن أن يختلف بشكل كبير، مثلها مثل مجموعات المصلين.

رفض المهدي، وباحتقار، عرض غوردون بتعيينه سلطاناً على كردفان، وبقي لعدة أشهر في كردفان يعمل على إدارة وتوجيه الحصار من قيادته في الرهد، ولم يشارك شخصيًا في الحصار حتى أكتوبر.
كانت سياسته الأساسية في أول شهور هي تنفيذ حصار مُحكم على الخرطوم، فقام بإصدار منشورات لزعماء القبائل والعشائر الدينية داعيًا لهم إما للانضمام إليه في كردفان، أو للمشاركة في الحصار. وقد أجابوا دعوته، فبعد شهر من وصول غوردون قُطعت اتصالاته البرقية، وواجهت غوردون أول مشكلاته مع الحصار. عيّن المهدي والد زوجته، محمد الطيب البصير، رجل دين من قبيلة الحلاوين في الجزيرة، لقيادة العمليات في وسط السودان. أحد أول رسائله بعد معركة شيكان كانت موجهة لسكان سلامات الباشا، حيّ السودانيين بالخرطوم.

بحلول أوائل مايو كان واضحًا لغوردون أن فرص التوصل إلى حل سياسي للإخلاء تتناقص بصورة سريعة. فقد جاءت في هذا الشهر الأخبار بسقوط بربر في الشمال، وكان قد مر بها قبل ثلاثة أشهر، في طريقه إلى الخرطوم، وأقام بها إدارة محلية لتتولي الإدارة بعد الإخلاء. حطمت نداءات المهدي ولاء مدينة بربر، وانهارت الإدارة التي أنشأها غوردون بعناية مثل أوراق الكوتشينة. لم يعد أمام غوردون أي

حل سوى المواجهة العسكرية، إما أن يهزم المهدي ومن ثم يواجه المشاكل السياسية المترتبة على ذلك، أو أن يحصل على تعزيزات عسكرية من مصر أو بريطانيا. أصبحت تعليماته الاصلية، الغامضة والمتناقضة، الآن غير ذات معنى أو صلة بالوضع. كان هذا الوضع واضحًا تمامًا لغوردون، ولكن ليس إلى القاهرة أو لندن، بالتالي أدى هذا إلى بطء في تقدير خطورة الوضع وتأخير في إرسال حملة الإنقاذ.

يمكن تقسيم الأشهر الثمانية التالية للحصار إلى أربع مراحل:
من مايو – يوليو شدّد المهدي قبضته على المدينة؛
في شهر أغسطس تولى غوردون زمام المبادرة ولكن تجاوز حدوده.
من سبتمبر – ديسمبر تلاحقت الكوارث متتالية؛
بحلول يناير كان الوضع يائساً تمامًا، وجاء السقوط النهائي بمثابة الغوث من هذا التوتر.

في المرحلة الأولى تمركزت قوات المهدي في مواقعها. وصل محمد عثمان أبو قرجة، دنقلاوي من القطينة، ليتولى القيادة في أبريل، وأتخذ مقره في الجريف. وعسّكر قاضي الكلاكلة، الذي كان من بين أول مجلس عينه غوردون وانضم الآن إلى قوات المهدي، بقواته جنوب المدينة. في حين قام جيش آخر بنصب معسكره في الفتيحاب، غرب النيل الأبيض. أما في الشمال، فقد قام رجلان، الطاهر محمد بدر العبيد، ابن رجل دين كبير من أم ضواً بان، ومضوي عبد الرحمن، بإكمال الحصار حول المدينة (كلًا من الرجلين، بالمناسبة، دعم كيتشنر في حملته اللاحقة لإعادة فتح السودان 1896–1898م). قام أبو قرجة، بعد أن استولى على باخرة وبعض الأسلحة في الماك، 20 ميلًا جنوب الخرطوم، ببناء سلسلة من الأبراج خارج تحصينات المدينة، وبدأ يُمطر المدينة بقذائف مدافعه من نوع كيرب.

شهد شهر أغسطس ارتفاع منسوب النيل، وكان هذا، متزامناً مع موسم الخريف وسقوط الأمطار. كان هذا في صالح القوات المُحاصِرة، فقد كانت الأمطار الغزيرة أقل إحباطاً لأصحاب الأرض، مقارنةً مع أولئك الذين يعيشون في الخيام أو من يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. ساعد منسوب النهر العالي بواخر غوردون، حيث سّهل النقل وأيقظ الأمل في النفوس. قام أحد جنود غوردون الأكثر كفاءة في أواخر أغسطس، محمد علي باشا حسين، وهو مصري مولود في منجرا، والمعروف باسم الباشا المحارب، بقيادة سلسلة من الغارات الناجحة للخروج من المدينة. فقد قام بالاستيلاء على 1600 بندقية من جنود

المهدي في الجريف. وقام بإخلاء مثلث الجريف – الكلاكلة من قوات المهدي، وبالتالي فتح احتمالات زراعة المحاصيل وتخفيف الوضع الغذائي الحاد، وقام في الوقت نفسه بطرد جنود المهدي بعيدًا عن الحلفاية، وطهّر ضفتي النهر، مما أمّن بصورة أكبر عملية نقل المواد الغذائية.

ولكن، في وقت مبكر من شهر سبتمبر، أحرز جنود المهدي سلسلة من الانتصارات، فقد تم استدراج الباشا المحارب وجذبه للخروج إلى العيلفون، 20 ميلاً من الخرطوم على الضفة الشمالية لنهر النيل الأزرق، وعند الفجر جاء الطاهر محمد بدر العبيد ومضوي عبد الرحمن من أم ضواً بان وذبحوا نصف جيش الباشا واستولوا على الآلاف من بنادق ريمنجتون، وكان هذا أكثر انتكاسات غوردون خطورة. وصل في اليوم التالي أكفأ قواد المهدي، عبد الرحمن ود النجومي، لتولي قيادة العمليات. أصبحت الفرصة الوحيدة لغوردون الآن هي النجدة الخارجية.

قرر غوردون الاستفادة من منسوب النيل الذي كان لا يزال مرتفعًا وإرسال واحدة من البواخر إلى مصر وبها كبار موظفيه لإقناع القاهرة ولندن بخطورة الوضع. كان البريطاني الوحيد الموجود معه هو نائبه العقيد جون ستيوارت، ومراسل التايمز، فرانك بور، وقد غادرا على متن الباخرة عباس يوم 10 سبتمبر. لم تصل الباخرة إلى وجهتها أبداً، فقد تم الاستيلاء عليها بين أبو حمد ومروي، وقُتل جميع ركابها، وتم ضبط جميع الرسائل والأوراق وإرسالها إلى المهدي، الذي قام بدوره باقتباس مقتطفات منها وإرسالها في خطابات مهينة إلى غوردون.

بعد أن علم غوردون أن هناك حملة إنقاذ في طريقها للخرطوم، وفي بادرة منه لرفع الروح المعنوية وتعزيز الأمل، قام بإرسال بواخر إلى شندي في نهاية سبتمبر لاستقبال الحملة، ولكنهم كان عليهم الانتظار إلى ما يقرب من أربعة أشهر. وصل المهدي بنفسه في أكتوبر واستقر في أبو سعد إلى الجنوب مباشرة من جسر النيل الأبيض على الضفة الغربية. وكان مع المهدي جيش قوامه 60000 تقريباً من الرجال، كان الجيش من الضخامة بحيث، وكما قال أحد المشاركين: "كان يتم إمساك دجاج غينيا[3] باليد لأنها بالكاد يمكن أن تطير مسافة آمنة، لأنه يلزم نصف يوم سيراً بالأقدام لقطع عرض الجيش".

[3] المترجم: معروف في السودان باسم "دجاج الوادي".

تراجعت فرص غوردون أكثر بعد انخفاض منسوب النيل، وقام جنود المهدي بإعادة احتلال شمال الخرطوم مرة أخرى. أخذ غوردون يشك في ولاء البعض، ليس فقط من سكان سلامات الباشا، ولكن أيضًا من وجهاء السودانيين. أصبح الوضع الغذائي متأزماً بعد أن انقطعت الاتصالات، وصارت جزيرة توتي مخزن محصّن للحبوب، وقامت دوريات متكررة بالبحث عن المخزون والمخبأ من الحبوب.

كان آخر اتصال لغوردون مع العالم الخارجي في 14 ديسمبر، وقال أن المدينة يمكنها الصمود لمدة عشرة أيام على الأكثر، ولكنها في الواقع، صمدت لمدة ستة أسابيع أخرى. شهد الشهر الأخير تغيير في سياسة غوردون للإعداد لاحتمال الهزيمة في النهاية. كان غوردون ما زال يحتفظ بالأمل في إنقاذه، ولكن تراكمت ضده الظروف العسكرية المعاكسة أكثر فأكثر. ولكنها لم تؤثر أبدًا في سلوكه وإدارته للحصار، فقد كان دائمًا قائداً واسع الحيلة، يسعى دائماً لاغتنام زمام المبادرة، وعمل على الحفاظ على الروح المعنوية العالية لجنوده بواسطة طوابير العرض المنتظمة، وقام ببيع مراتب الشرف والميداليات، ومن عائداتها دفع للجواسيس والمراسلين، وأمر بعزف الموسيقى المرحة بعد غروب الشمس مساء كل يوم جمعة وأحد.

أهتم غوردون بالتفاصيل الدقيقة للإنسان، مما استفاد منه شخصياً (وبالتالي الحكومة) وزاد من شعبيته، على سبيل المثال: أمر بالشراء الإجباري للحبوب وتوزيعها للفقراء، أعاد تنظيم المستشفى وعكف بنفسه على تولي مهمة الإعداد لألعاب الطاولة والدومينو للمرضى الفقراء.

حوّل غوردون، مراراً، الظروف الغير مواتية لمصلحته، من ذلك: في أحد مراحل الحرب قام بتشكيل شخصيات خشبية تشبه الجنود، ووضعها على الحاجز الدفاعي شمال الخرطوم، فقام جنود المهدي بإطلاق النار عليها، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا الخدعة. بعد ذلك حاولوا التسلل لسرقة الملابس من على التماثيل الخشبية، ولكن أثناء قيامهم بذلك أصبحوا أهدافًا مفتوحة للجنود المدافعين من على سطح القصر. مرة أخرى، عندما حفر جنود المهدي الخنادق وكانوا قادرين على إطلاق النار منها بتركيز وأمان نسبي، عندها قلب غوردون الوضع، فقام بتشييد الأبراج العالية، والتي من أعلاها استطاع قناصته إصابة جنود المهدي داخل الخنادق.

سقطت طابية أم درمان في 5 يناير، بعد أن أبلى قائدها فرج الله باشا بلاءً حسناً وقاوم لفترة شهرين، مما أثار إعجاب المهدي بشخصيته، وقام لاحقاً بتعيينه قائداً في جيش المهدي وخدم بشرف في حروب المهدية مع إثيوبيا. أعلن غوردون في يوم 18، أن يوم عمل واحد لجنوده سوف يعد بمثابة خدمة سنة كاملة، ولكن في اليوم التالي، 19، قام عدد من الضباط، الغير مقتنعين بمضاعفة أجرهم 350 مرة، بالخروج والانضمام للمهدي. عندها، دعا غوردون المتشككين الآخرين بالخروج إذا أرادوا، وتم تجهيز باخرة لمغادرة الخرطوم تحمل على متنها وجهاء المواطنين.

وصلت الأخبار للمهدي في يوم 20، بأن حملة الإنقاذ اشتبكت مع جيش المهدي في أبو طليح، عشرين ميلاً إلى الغرب من المتمة، ولكن يبدو أن النتيجة لم تكن حاسمة، فقد أفادت التقارير بمقتل قائد المهدي، موسى ود حلو. يبدو أن هذا أقلق المهدي، ورغب في سحب جيشه، الذي وصل تعداده حينها إلى ما يربو من 100،000 جندي غربي كردفان، ولكن، رجحت كفة أهل الحكمة من مستشاريه الذين نصحوه بالثبات ومواصلة الحصار. فقد أشاروا إلى أن الخرطوم يائسة، وكان العدد الكبير للجواسيس والفارين شاهداً على ذلك. كما يبدو أن البريطانيين أيضًا عانوا من خسائر فادحة، بما فيها عقيد في جيش غوردون. ثم جاءت أنباء عن اشتباك آخر في أبو كرو قتل خلاله اللواء البريطاني، السير هربرت ستيوارت. أيًا كان التهديد الذي تمثله حملة الإنقاذ البريطانية، فهم في النهاية بشر ويُقتلون كما غيرهم، لذلك كان من الضروري اتخاذ إجراء حاسم. اقتراب حملة الإنقاذ أقنع المهدي بضرورة شن هجوم سريع. ارتبط الهجوم بتوقيت اقتراب الحملة ارتباطًا حتمياً إلى درجة أنه سيكون من العبث القول أن حملة الإنقاذ "تأخرت جداً"[4].

كان غوردون يدرك جيدًا أن أضعف نقطة في دفاعاته هي الجزء الغربي، بين طابية الكلاكلة والنيل الأبيض. كما رسم النهر في السابق، بدرجة كبيرة سمات حصار الخرطوم، كذلك رسم عملية سقوطها. عندما وصل النهر إلى كامل فيضانه، في شهر أغسطس، وصل الماء إلى بعد بضعة أمتار من طابية الكلاكلة، وقد كان يُنظر للنهر غرب المدينة على أنه خط دفاع كاف. مع انحسار مياه الفيضان، ظهر الخندق القديم، ضحلاً وسهل العبور.

[4] المترجم: هذه الجملة المهمة سيتم شرحها بوضوح في نهاية الفصل.

كان جنود المهدي يضغطون، وقاموا بتهديد العمال الذين كانوا يريدون زيادة عمق الخندق وتوسيعه. بحلول منتصف يناير كان هناك حوالي 1000 متر من المتراس ضعيفة وغير كافية، فقد كان عمق الخندق متران فقط، وبالرغم من إنه كان يزال ملئ بالأوحال، إلا أنه لم يكن كافيا لمنع الهجوم.

الغريب، أن غوردون، على الرغم من علمه بذلك الضعف، كان يتوقع أن يأتي الهجوم من جهة بوابات المسلمية وبري، وعليه ووفقًا لرؤيته هذه وضع المزيد من القوات هناك. ومع ذلك، كان غوردون على علم بتعاطف العديد من جنوده السودانيين مع المهدي، فقام بوضع الجنود النظاميين المصريين فقط على امتداد الخط الدفاعي الممتد من طابية الكلاكلة إلى النيل الأبيض. كان يتم القيام بدوريات على هذا الامتداد من قبل اثنين من الكتائب، كل كتيبة مكونة من أربع فصائل، وكل فصيلة تحتوي على 105 رجل. كما وضع سرية خيّالة غير نظامية بين الكتيبتين كان فيهم بعض الشايقية.

قام المهدي بعبور النيل الأبيض يوم الأحد 25 يناير، وخاطب جنوده، وقال أحد جنوده: "خطب فينا وهو على ظهر بعيره". كان جزء مما قاله، قبل أن يحلفوا يمين الولاء النهائي: "قام أعداء الله بحفر خندق عميق وواسع جداً يحيط بالخرطوم وقاموا بوضع قطعاً حديدية ولكل منها أربعة مسامير، وقفت على ثلاثة منها، وترك المسمار الرابع مستقيماً لاختراق أقدام الرجال أو حوافر الخيول". ثم قال: "بايعوني على الموت." ثم صمت للحظة، وعندها صاح الجيش كله وبصوت واحد ثلاث مرات: "نقسم يمين الولاء لكم على الموت". بعد منتصف الليل بفترة وجيزة بدأ الهجوم.

ركّزت قوات المهدي هجومها على النقاط الضعيفة من الدفاعات. قامت بإلقاء بعض الفرشات على الطين اللَّين لتسهيل عبورهم الخندق الموحل. أحد الجنود غاص في الوحل حتى ركبتيه في الخندق، وقام أصحابه بتسلقه وصعدوا إلى الجانب الآخر، الأمر الذي جعله في الوحل حتى خصره. رجل واحد، بابكر بدري، قام بالعبور في منطقة ضحلة جدًا وجافة لدرجة إنه عبر للجانب الآخر قبل أن يدرك ذلك. بالرغم من ذلك، كانت مقاومة المدافعين شرسة، قال أحد الجنود السودانيين المدافعين: "هاجموا الجزء الذي كنا ندافع عنه من الخط أيضاً بشدة، وعلى الرغم من أننا قمنا بأطلاق بنادقنا حتى صارت حامية جدًا للامساك بها، ولكنهم في النهاية تدفقوا من فوق الترس بأعداد هائلة، وقتل كل من تبقى واقفاً".

تدفق المهاجمين على ثلاثة محاور – من قبل الترس الضعيف، من خلال بوابة المسلمية، ومن بوابة بري، التي تم اقتحامها بأعداد هائلة. كانت قوات المهدي تميل إلى التحرك داخل الترس حتى نقطة بالقرب من بوابة المسلمية ومن هناك تتوجه إلى المدينة. تلا ذلك مجزرة عامة ونهب للمدينة، وكان غوردون من بين القتلى.

لم تكن تفاصيل وفاة غوردون مؤكدة، وهناك خلاف حول هوية قاتليه. تعتبر روايات الاقتحام المتعددة التي انتشرت في السنين التالية ذات قيمة تاريخية محدودة، ذلك أنها يغلب عليها الانفعال، وتم استخدمها بعد ذلك بسنوات في محاولة لإثارة الرأي العام ضد الدولة المهدية ولصالح حملة إعادة فتح السودان.

من بين أولئك الذين قتلوا أوروبيين، وسودانيين ومصريين. دعونا نتفحص اثنين منهم. كان مارتن هانسيل، النمساوي الجنسية، نائباً للقنصل منذ عام 1862م، وكان إنسان متفتح بالفطرة وطابع مؤهل. إعتاد العزف على البيانو والأورغن بانتظام في الإرسالية الكاثوليكية، وربما يكون قد عزف على البيانو الموجود حالياً في متحف بيت الخليفة. كان يستطيع لعب دور الأحمق عندما يريد. تزوج في السنوات التالية من فتاة مولّدة تبلغ من العمر 18 عامًا ونصف من الجنسية الأثيوبية، وكان يقوم بالمشاركة في حفلات الرقص في مناسبات الزواج بطريقة خليعة، ولذلك كان مرفوضاً من قبل غوردون. يروى أنه كان مستعداً للجلوس مع المهدي لتسوية الخلاف، وهذا موقف مفهوم بالنسبة لدبلوماسي، ولكنه لم يحظ بالفرصة، وقتل في المجزرة العامة.

الآخر الذي فقد حياته، فايد محمد، كان رجل دين من مصر وزعيم الطائفة الأحمدية. ألقي به إلى حتفه في بئر قبل 91 عامًا مضت، ولا يزال قبره يُزار، ويمكن مشاهدته في شارع الجامعة، بين المجلس الثقافي البريطاني ودوّار الاتحاد الاشتراكي السودان.

ولكن هناك العديد ممن نجوا من الهجوم، فقد اختبأ بعض الجنود المدافعين بين رفاقهم القتلى وانتظروا فرصة الهروب. دعونا ننظر في مصير اثنين من الناجين.

الأول كوشتي بن صهيون نجل حاخام مدينة الخليل بفلسطين. جاء إلى السودان في حوالي عام 1879م، وكان في الخرطوم خلال فترة الحصار، وأدان غوردون المال. على حد قول ريتشارد هيل: "اضطره المهدي للبقاء في أم درمان بعد سقوط الخرطوم". سرعان ما اكتسب بن صهيون ثقة الخليفة عبدُ الله، وكلفه بمهام مختلفة، بما فيها مقايضة المنتجات السودانية بالسلع الكمالية المصرية المستوردة عبر سواكن. عاش بن صهيون، والمعروف ببسيوني، حتى العام 1917م وكان زعيم الطائفة اليهودية في السنوات الأولى من الحكم الثنائي.

الثاني كان بيترو أوقاتي، بنّاء إيطالي جاء إلى الخرطوم في 1850م. نجا من الحصار وعاش في أم درمان مع زوجة وأسرة سودانية، ومارس حرفته وبنى للخليفة منزل في أم درمان. لم يكن راغباً في العودة لوطنه عندما أعادة القوات المصرية/الإنجليزية فتح البلاد في عام 1898م، وعاش حتى عام 1918م، وتوفي في مقر الإرسالية الرومانية الكاثوليكية بأم درمان عن عمر 90 عاماً.

بعد أعمال القتل والنهب التي تمت، أصبحت الخرطوم الآن مكانًا لإقامة كبار الأمراء. توفي المهدي في يونيو 1885م وحول الخليفة مقر الدولة عبر النهر، وبهذا، أصبحت الخرطوم مهجورة وصارت أم درمان العاصمة.

وصلت حملة إغاثة غوردون، التي كانت السبب في إطلاق شرارة الهجوم النهائي على الخرطوم، المدينة يوم 28 يناير، بعد يومين كاملين من سقوط المدينة. لم تبذل الحملة أي جهد في محاولة الرسو، وعادت أدراجها نحو الشمال، تطاردها قوات المهدي بالنيران.

استسلمت الحاميات المصرية الأخرى في السودان، وصار السودان كله في كامل سيطرة المهدي، ماعدا وادي حلفا وجزء من الساحل حول سواكن.

تم رواية قصة حصار وسقوط الخرطوم بصورة أساسية من وجهة نظر غوردون والمدافعين عن المدينة. وللأسف، جاءت روايتي تبعاً لوجهة النظر هذه.

سببت وفاة غوردون الألم الحاد لكثير من الناس في انكلترا، وحاولوا إيجاد كبش فداء. أُتهم السيد جلادستون، المعروف بالرجل العجوز الهرم، باللامبالاة بمصير غوردون، وأصبح يعرف باسم قاتل غوردون. جرت محاولة – ولا تزال – لنسب المسؤولية الأخلاقية لموت غوردون إما إلى جلادستون، أو لأفراد في حملة الإنقاذ، أو لغوردون نفسه.

فكرة الذنب هذه تطرح عددًا من الأسئلة؛ فقد كان من المشكوك فيه ما إذا كان غوردون قد يسمح بإنقاذ نفسه. فهو أعلن أنه سوف يرفض الرحيل، مؤكدًا مسؤوليته تجاه سكان الخرطوم. من غير المعروف ما كان يمكن أن يحدث بعد إنقاذه. هل كان من المخطط له التخلي فجأة عن السودان؟ إقامة نظام خليفة؟ أو محاربة الإمبراطورية المهدية الجديدة؟

يبدو أن الناس يفشلون باستمرار في فهم ديناميكية المهدية، ويعملون مرارًا على التقليل من قوتها. كان ينظر إليها على أنها قوة غير ذات شخصية، وليس كمجموعة من الأفراد لها مصالحها الخاصة، ومشاكلها الأخلاقية، وولاءاتها المتفرقة التي تحدد سلوكياتها.

فكرة أن حملة الإنقاذ جاءت متأخرة جداً، تبدو لي فكرة مضللة على نحو خاص. فقد أكّدت من قبل أن تباشير الحملة عجلت بسقوط الخرطوم، إذا افترضنا أن الحملة وصلت قبل موعدها بأسبوع واحد، فمن المحتمل أن السقوط كان ليكون قبل أسبوع واحد أيضاً. علاوة على ذلك، وصلت الحملة الخرطوم بسرعة كبيرة، فقد استغرقت خمسة أشهر لتصل من القاهرة، واجهت خلالها قبائل معادية، وفي ظل توسع وانتشار الولاء للمهدية. استغرق الأمر من كيتشنر عامين لكي يأتي إلى الخرطوم 1896 – 1898م، وكان مجهزاً بصورة أفضل بكثير: فقد تطورت الأسلحة الأوروبية تطوراً هائلاً، بينما ظل مستوى أسلحة الخليفة هو نفسه. قدمت قبائل شمال السودان المسلحة دعمًا كبيرًا له، ولم يعد للمهدية ذات الزخم الذي كانت تتمتع به في 1884–1885م.

ما زلنا نجهل العديد من جوانب الحصار، وتم إضافة القليل من المعلومات الجديدة التي يمكن أن تغير الرواية كما كانت تُعرف في عام 1890م. صار هناك تحول في الاهتمام، وتقدير أكثر لكل ما مثلته

المهدية، ومآزق غوردون. دراما الحصار جعلت موت غوردون وانهيار الحكم المصري في السودان مثل المشهد الأخير من مسرحية هاملت، يحتاج فقط لإنزال الستارة.

علينا أن نتذكر استمرارية عجلة التاريخ، سكن الناس في الخرطوم وأم درمان، وأحفادهم يعيشون بيننا اليوم، أما بالنسبة للمهدي وخليفته، وبعد أن سيطروا على السودان، فقد بدأت مشاكلهم للتو.

النص الأصلي

SL